الأدب العامي ومحاور الاهتمام به

د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

منذ خمس سنوات ظهرت موجة من التوجه إلى اللغة العامية والاهتمام بأدبها وفنها وجمال تعابيرها، واتخذت هذه الموجة الصحافة المحلية ميداناً، طرح فيه الكثير من الكتّاب والأدباء والمتأدبين أراء حول انتشار العامية في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، وتحدث كتاب الأدب الشعبي عن قيمة هذا الأدب وعن أهميته الفنية والتاريخية ودافعوا عن وجوده واستمراره معتمدين على نقاط تكوّن مجمل المحاور التي رددها عشاق الأدب العامي. ولأن قضية الاهتمام بالشعر العامي سيكون من نتائجها اهتمام بلغته العامية التى ينظم بها، ولأن ذلك لامحالة سيقود إلى الابتعاد عن الفصحى وأدبها وفكرها بما يمكن أن يصرف أنظار الناس إلى ماتجود به قرائح شعراء العامية. وأمام هذا الاحتمال قام محبو العامية بالدفاع عن وجهة نظرهم وردّوا على القائلين بخطر الأدب العامي على موروث الأمة الحضاري وثقافتها الفصحى. وجعلوا قضية الاهتمام بالعامية قضية قوميّة فخلعوا عليها الكثير من الوظائف التي لاتتحقق إلا للفصحى، وذكروا في سبيل دفاعهم عدداً من الأمور التي تستحق الدراسة لما لها من صلة بمسار الأدب العربي، ولما لها من آثار ونتائج لايحسن السكوت عنها لما تحمل من مغالطات يجب توضيحها وبيان وجه الخطأ فيها.

وفي هذه الدراسة تتبع لأراء مشجعي الأدب العامي ومحاولة لجمع المقالات والدراسات التي طرقت الأدب الشعبي وتحدثت عن خصائصه ومزاياه واستعراض لمقدمات دواوين الشعر العامي التي زخرت بالثناء والتمجيد لأدب العامية، ومن خلال ذلك يتبين أن الباحثين فى

الأدب العامي مجمعون على عدد من الركائز جعلوها مبرراً لاهتمامهم بالعامية.

وقد كانت آراؤهم تدور على ثماني مرتكزات هي محور تبرير الاهتمام بهذا النوع من الأدب، استخلصتْ في هذا البحث من كمٍّ كبير من الكتابات لعدد كبير من الكتاب، وطرحتْ في مصادر مختلفة من وسائل النشر.

وسوف يشار باختصار بعد كل ركيزة إلى عدد من المصادر ويترك استقصاء الإشارات التي تكررت في مناسبات مختلفة لكثرتها وتكرار معناها لأن إيرادها سيؤدي إلى تكرار عدد من المصادر والأقوال عند أكثر من كاتب.

ورغم وفرة المادة التي جُمعتْ حول هذا الموضوع إلا أن الباحث رأى الاختصار، وجعل معالجة كل ركيزة رصداً للآراء حولها قائماً على الاستقراء الكامل للتثبت من صدق الدعوى التي يدلي بها أنصار العامية أو عدم صدقها.

الركيزة الأولـى :

ننتقل بعد هذا العرض المختصر إلى مناقشة الركائز التي أجملنا الحديث عنها، ونبدأ بالركيزة الأولى التي جمعت الآراء الدارجة التي تطرح في وسائل الإعلام، وهي لماذا يقف الناس ضد الأدب العامي أو الشعبي، ولماذا لايرحب الجميع به ؟(1).

بدأت هذه الآراء بالسؤال لماذا يقف الناس ضد الفكر العامي وصرحت فئة منهم بأنها لاتعرف السبب الذي يجعل الناس يقفون ضده ؟ وهي بسؤالها صادقة كل الصدق ؛ فهي لاتعرف السبب الذي جعل الناس يقفون ضد منهج الطرح الفكري للعامية في الوقت الحاضر. وهي لاتدرك وليس في قدرة بعضهم العلمية مايؤهلهم لمعرفة السبب الذي جعل الناس لايرحبون بالعامية وبثقافتها وأدبها. ومن حق هذه الفئة أن تجاب وتبسط لها الإجابة، حتى تستطيع إدراك معرفة السبب الذي يجعل الناس يعترضون على نشر الأفكار العامية في هذا الوقت في وسط الجزيرة وأطرافها. ومن حقهم أيضاً أن يخاطبوا بما يستطيعون فهمه عقلاً إذا كان ليس لهم حظ من العلم يدركون به هذا الاعتراض.

فالاعتراض على الفكر العامي والوقوف ضده لم يكن بدون مبررات لها وجاهتها، لاسيما

إذا قبلنا مايقرره مؤرخو الأدب العامي من أن العامية وأدبها كانا موجودين في الجزيرة منذ خمسة قرون[٢]، ولم يقف ضدهما أحد خلال تلك الفترة الطويلة التي عاشاها مع الفصحى، ولايستطيع المتسائلون أن يأتوا باسم واحد وقف ضد العامية في الجزيرة خلال الزمن الذي حددوه. أما اليوم فقد كثر المعارضون لها، وكثر الذين يرون فيها خطراً على ثقافة الأمة الأصيلة، مما جعل رواد العامية والمعجبين بها يستنكرون هذا الموقف. لكن ماالسبب في الاعتراض على الأدب والفكر العاميين في هذا الوقت ولم يظهر في السابق ؟ السبب هو ماجدّ من جديد على منهج الطرح الفكري الذي غيّر وضع الأدب العامي، ونقله من طبيعته التي كانت له منذ كان في الجزيرة إلى وضع آخر وطبيعة أخرى لم تكن له من قبل. وهذا الجديد تمثّل في محاولة قوية تهدف إلى استغلاله وتوظيفه فكراً مبرمجاً ومنهجاً متبعاً يرقى به إلى مستوى الاستعمال العام، ويفرضه ويفرض لغته وفكره على الأمة التي لاتقر ثقافة غير الثقافة العربية ولاتعترف بفكر غير فكر الإسلام.

فاعترض الناس على الوظيفة التي أصبحت تناط به وأصبح يؤديها، وهي غير وظيفته الأصلية الأولى التي كانت له، فوظيفته الأولى هي أنه يحتل حيزاً في حياة الناس ويؤدي أغراضاً لاتؤدى بغيره ولم يكن يحمل فكراً وآراءً تناقض الأسس الفكرية لتراث الأمة الأصيل، وليس فيه مدخل لأهواء خارجية. والذين يتعاملون مع الأدب العامي في الماضي هم العاميون أنفسهم الذين لايحسنون غير العامية ولايعرفون أدباً سواها، حين كانت سبل التعليم محدودةً وضرورة استعمال العامية قائمةً، وللضرورة أحكامها.

أما اليوم فقد حمل الأدب العامي فكراً، وبدأ العمل على نشر العامية، ودعا إلى الاهتمام بها وبأدبها علماء ومثقفون على جميع المستويات وهؤلاء لم تعد العامية ضرورة دافعة لهم لكي يختاروها طريقة تعبير. وهم لايرضون أن يوصفوا بالعامية والأمية وأراؤهم التي تدافع عن العامية أراء تحمل فكراً وتدعو إلى سبيل غير السبيل الذي تهيأت واستقرت عليه ثقافة أمة عمرها ألف وخمسمائة عام.

والكلام هنا لا يعني الشعراء المبدعين للشعر العامي، فهؤلاء حتى اليوم لايحمل شعرهم أفكاراً ضارة، إنما يعني منظرى الأدب العامي. والذين يقفون ضد الفكر العامي يعرفون أن

الاهتمام بالفكر الشعبي طارىء لا أصل له، ولديهم من علمهم واستقرائهم وخبراتهم مبررات تجعل وقوفهم في أغلب الأحوال قائماً على أسس متينة، من معرفة خلفية الاهتمام بالتراث العامي، ومصادر هذه الخلفية وملابساتها والدوافع الأولى إليها، وهم يعلمون أيضاً أن استمرارها وإن لم تكن بواعثه هنا هي نفسها الدوافع الأولى التي كانت وراء بعثه في مصر والشام. فهي ستؤدي في النهاية إلى النتائج التي تطلع الاستعمار إليها عندما أعلن مناصرته لحركة العامية[٣]. والمعترضون عليه يقرؤون مضامين الفكر العامي ويعرفون نقاط الارتكاز فيه ويلمسون الطرح المنظم والبعد به عن العفوية والانطلاق البريء الذي كان له فيما مضى حين لم يعترض أحد عليه.

الركيزة الثانية:

يتحدث المحبذون للفكر العامي ويدّعون أن هناك أشياء شعبية محلية لايمكن أداؤها باللغة العربية الفصحى، وليس في استطاعة عامة الناس الحديث بالفصحى بين عشية وضحاها. وأن نسبة المتعلمين من أبناء الأمة نسبة منخفضة[٤] وغير ذلك من الآراء والمبررات التي تثار في سبيل الدفاع عن مواقف وأراء محبي العامية، وقد غطت الساحة الأدبية منذ خمس سنوات موجة من التبرير لاستعمال العامية ترتكز كلها على مثل هذه الآراء اللينة الضعيفة.

والرد على الآراء والدعاوى السابقة يحتاج إلى قراءة كل المصادر أو أغلبها التي تناولت قضية العامية منذ بدايتها في مصر حتى وقتنا الحاضر. ورغم أن ذلك فوق طاقة الفرد المحدودة ووقته الذي يشغله كثير من الاهتمامات الأخرى. إلا أن ذلك أيضاً لايمنع من بذل الجهد وتتبع الآراء. وقد قرأت ما استطعت الوصول إليه من الكتب والمصادر التي كتبت عن العامية أو أرخت لها. وتلك التي عارضتها وتصدت لها. وألممت بآراء الطرفين حول القضية، ورجعت إلى الكثير من المجلات والصحف والدوريات التي أشارت إليها المصادر والكتب ونقلتُ عنها لا في الجزيرة العربية فحسب بل في كل أجزاء الوطن العربي الكبير، الذي تعرض لخوض معركة الفصحى والعامية منذ قرن من الزمان. ولم أجد رأياً واحداً لا في صحيفة يومية ولا في مجلة ولا في دورية معروفة ولا في كتاب منشور، يقول بأنه يجب على الأمة العربية أن تتكلم باللغة العربية الفصحى في كل الحالات وأن تحول الحديث إلى الفصحى بين عشية وضحاها، وأن كل فرد فيها يجب ألا يخاطب زوجته وطفله إلا طبقاً لقواعد النحو العربي، ولاسمعت أن

هناك رأياً واحداً يقول إن الرقص والأكلات الشعبية والأغاني وصوت الطبل كل ذلك يجب أن يكون باللغة العربية الفصحى. حسبما ادعت الأراء الكثيرة التي أدلى بها المدافعون عن الفكر والثقافة العامية ونشرنا نماذج منها وأعرضنا عن الكثير.

وهذا ما يجعل المتتبع لأرائهم يتهم الاتجاه إلى العامية بأنه اتجاه فكري يثير قضايا لاوجود لها ويفترض افتراضات ويبنى على هذه القضايا والافتراضات وجهات نظر ثم يأخذ بدافع عن فرضياته ووجهات نظره وكأن الطرف الآخر هو صاحب هذه الآراء والفرضيات. والهدف من ذلك هو تضليل القراء والمتابعين وإيهامهم أن هناك من الناس من يطلب مثل تلك المطالب التعجيزية. لكي يكسب منظرو الفكر العامي تعاطف الرأي العام ويبرروا دفاعهم عن وجود العامية وانتشارها، مدعين أن هناك من يريد أن يفرض على الأمين الحديث بالفصحى وأن هناك من يطالب بتحويل «السامري» و«العرضة النجدية» إلى قصيدة عروضية[٥]. وقد عجزت رغم تتبعي لما دار حول قضية العامية في الجزيرة والخليج واهتمامي بما كتب عنها عن العثور على أي شيء يدل على أن هناك من دعا إلى إلغاء العامية الدارجة وفرض إحلال اللغة الفصحى محلها حتى وإن كانت هذه الدعوة مشروعة. فليس هناك من قال بوجوبها. وإذا كانت جهودي محدودة واطلاعي ضيقاً فإنني أطلب من الذين يدَّعون أن هناك من يطالبهم بهذه الأمور إرشادي إلى مصادرهم التي نقلوا عنها حتى تقوم الحجة على تطرف أنصار الفصحى وبعدهم عن الواقع الذي يعيشه الناس إذا طالبوا بذلك.

الركيزة الثالثة:

أما الركيزة الثالثة فتقوم على ادعاء مفاده أن التراث الشعبي هو الذي يحدد هويتنا ويميز شخصيتنا، وإن لم نحافظ عليه فسنحتاج إلى تقليد غيرنا. وأن أمجادنا وتاريخنا هو مايحفظه لنا العامي وإن فيه جذورنا ومنابع أصالتنا[٦].

وأزعم أنني تابعت بحرص شديد أكثر مانشر عن العامية منذ ثلاث سنوات في الصحف وبوجه خاص في صحافتنا المحلية وأكاد أجزم أنه لم يخل حديث ينشر أو يذاع أو مقال يكتب إلا ويشير إلى معنى من هذه المعاني التي أجملتُ في الفقرة السابقة، ويكاد يجمع الناس الذين يدافعون عن العامية عليها رغم اختلاف مستوياتهم العلمية وتباين وجهات نظرهم. وقد

حاولت افتراض عدد من الأسباب جعلت الناس يجمعون على أن الأمة العربية في الجزيرة خاصة تتميز شخصيتها في العامية وتكمن أمجادها وتاريخها بما يحفظ لها العامي من نتف الأخبار منذ قرنين فوجدت أنه قد يكون من هذه الأسباب.

أولاً: عدم الدقة في استعمال كلمة «جذور»، وعدم فهم المدلول اللغوي لاصطلاح «منابع الثقافة» عند اطلاقها على الفكر العامي والثقافة العامية. وعدم التفريق بين معاني كلمات «المنبع» و«الرافد» و«الاضافة». واحتمال أن بعضهم يريد أن يقول إن التراث الشعبي رافد من روافد المعرفة. أو ماشابه ذلك، فخانتهم الدقة في التعبير عما يريدون، أو أنهم لايعرفون الفرق بين المنبع والرافد فوقعوا في خطأ غير مقصود قادهم إليه جهلهم بهذه الكلمات.

ثانياً: اندماجهم بالحس العامي وتأثرهم تأثراً قوياً بتميز عامية وسط الجزيرة أو بعض أجزائها عن بقية العاميات في الوطن العربي كله.

ثالثاً: تأثير الماضي القريب أي منذ قرنين على حياة الناس وماجدّ فيه من تكوينات سياسية واجتماعية كادت تقطع الصلة بين حاضر الجزيرة وماضيها وتضع لها تاريخاً لاينطلق من تاريخها العربي والإسلامي ولا يعتمد عليه.

رابعاً: جهل بعض أصحاب هذه الأراء بالدور التاريخي المستمر للعرب منذ الجاهلية إلى عصرنا الحاضر الذي لم يتحول ولم ينقطع وإن ضعف في بعض القرون وتذبذب في قرون أخرى.

خامساً: وربما كان قولهم ذلك أيضاً من قبيل التعميم الذي لايقصد معناه، وإنما أملته الرغبة في الدفاع عن الموقف الذي يلتزم به المحبون للعامية.

كل ذلك تردد في نفسي وجال في تفكيري وأنا أقرأ أحكامهم وآراءهم، وكان من الممكن التماس الأعذار لهم لولا أن بعض من أدلى بدلوه وأطلق هذه العبارات لا يلتمس لمثله عذر، ولايمكن أن يُعدَّ ممن يلقى الكلام جزافاً؛ لأن مركزه السياسي يفرض عليه التأني والدقة بما يقول ولأن موقعه الوظيفي يجعله ملماً بتاريخ الأمة الإسلامية العربية، ويعرف منابع الأصالة وجذور ثقافة الأمة التي انحدر هو منها، ولأن الرجل يلقي كلمة رسمية معدة سلفاً ومكتوبة لتلقى في مؤتمر يحضره بعض العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات ورجال الفكر والأدب، وقد

خاطبهم بقوله :

(إن الحرص على رعاية التراث الشعبي لهذه المنطقة هو جزء من اهتمامنا الشامل بالفولكلور العربي، ومن رغبة أكيدة في البحث عن منابع أصالتنا والتعرف إلى جوانب ابداعات أجدادنا لدراستها وتحليلها ذخيرة لأجيالنا المقبلة، وقال إن هذا واجب وطني قومي تضطلع به النخبة المثقفة من أبنائنا الذين يعايشون التطور الاجتماعي والاقتصادي لعالمنا العربي ويحدوهم شعور أصيل في التشبث بالجذور الثقافية لأمتهم[٧]).

إذا كان هذا الحديث منسوباً لوزير إعلام عربي يعيش في الجزيرة العربية ويتحدث إلى العرب سكان الجزيرة العربية. فكيف يعلل ترديده لهذه الجمل الخطيرة في معناها ومدلولها وماتلقيه في روع الشباب من معاني وماتخلفه من آثار. وكيف يفترض أن هذا الوزير لا يميز ولا يفرق بين منابع أصالة أمته وجذورها الثقافية وبين ماجدّ في حياتها منذ مئة عام أو تزيد قليلاً. هل يساء الظن به ويقال إنه يعني مايقول، ويريد أن تكون جذورنا الثقافية ومنابع أصالتنا وإبداعات أجدادنا هي ماحفظه لنا التراث العامي الذي يتحدث عنه في مؤتمره الشعبي ؟ أم أنه لايفرق بين المنبع والأصل، وبين الحواشي والأطراف ؟ إنه ليس من السهل إتهامه هو وأمثاله بأنهم يريدون قطع صلتنا بماضي الأمة العربي ثم العربي الإسلامي الذي أشرق منذ خمسة عشر قرناً وسال من منابعه مع البعثة النبوية ليروي أرض الجزيرة والعالم، ثم أغدق واخضرّ في دولة بني أمية وآت ثماره الفكرية والثقافية في القرنين الثاني والثالث الهجريين وهضم ثقافات العالم القديم وحضاراته في القرنين الرابع والخامس حين أصبحت ثقافته عربية إسلامية يمدها النبع الأصيل من القرآن وجذور التاريخ المشرق ـ واستمر في كل العصور ينقل القوة معه للعرب وغير العرب من المسلمين. وعندما تصرمت قوته قبل قرنين من الزمان نشأت على ركام تصرمه عامية ركيكة مبتذلة لا تعبر عن فكر ولاتمثل ديناً ولا تستوعب حضارة ولاتعتمد على تاريخ إلا تاريخ الفرقة والتناحر والمعارك العشائرية، وإذا شئنا أن نلتمس له عذراً ولكلامه محملاً حسناً فالاحتمال الوحيد هو أنه قد وقع تحت تأثير الاتجاه العام إلى الفكر العامي فقال ما قال، وهو لا يعني مدلول هذه الجمل التي يرددها. وإنما انساق مع الشعور الذي يحسه بتميز عادات مجتمعه، وانفعل بمن حوله فقال ذلك ونسي أن يتذكر التاريخ، وأن يتمثل المعنى المحدد للجذور والأصالة والمنبع، وانطلق يقول ماكتب له مروجو العامية من كلام

لايحتمل معنى ولا ينطق عن حقيقة ولايقول حقاً. وقد وجد أعداء الأمة العربية في اللغة العامية ضالتهم عندما لقنوا أبناءها بأن فيها جذورهم الثقافية ومنبع أصالتهم، وتميز شخصيتهم. وليس في العامية شيء يجعل لها هذا المكان في النفوس، وليس هناك جذور أو إنتماء غير الإنتماء إلى حضارة الأمة العربية منذ بداية عهدها الأول في الجزيرة حتى نزل القرآن الكريم بها. فكانت الأصالة وكانت الجذور وكان المنبع الخالد الذي تعجز العامية ويعجز العاميون عن زحزحته عن مكانه مهما أعجبوا بغيره من أنواع الثقافات والأفكار ولابد من تبديد سحابة الاعجاب بأرائهم وأفكارهم وبيان وجه الحق، وخطأ مايرددون من أقوال جوفاء.

والرد على هؤلاء مهما كانت مقاصدهم هو رد واحد، وهو تعليمهم منبع الأصالة وجذور الثقافة والانتماء الكامل للمنبع الأول الذي وجد في دين الإسلام وفي القرآن وفي تاريخ الدولة العربية الإسلامية.

ولا يمكن أن نفترض أن المرددين لهذه العبارات قد اقتنعوا بأهمية الانتقال إلى العامية واتخاذها منبعاً جديداً وأصالة جديدة مالم نفترض أن الفكر الأصيل قد أعجزهم فبحثوا عن فكر وثقافة ضعيفة في مستوى قدرتهم وضعفهم حتى يستطيع الضعاف من البشر التعامل مع فكر وثقافة مثلهم في الضعف لاتعجزهم بضخامة موروثها الحضاري وفكرها الراقي الذي ربـا وارتفع خلال القرون وأصبح مروجو العامية لايستطيعون التعامل معه أو تسلق سموقه وارتفاعه.

إن اطلاق منبع الأصالة والجذور التاريخية على أي حقبة من حقب التاريخ بعد القرن الأول للإسلام اطلاق لايقره عربي صادق العروبة ولايعترف به مسلم صحيح الإيمان والإسلام. ولايقول به أحد ولا يقصد معناه الحقيقي إلا من كان يريد بأمة محمد ﷺ شراً وبالعرب عامة ارتداداً وانتكاساً.

ولا نستطيع ونحن نواجه هذا المفهوم والقول الخاطيء إلا أن نحمل مقاصد أبناء أمتنا الذين ينزلقون إلى هذا التعبير الخطير والفكر المضطرب على الغفلة وعدم الإدراك وعدم التنبه لمقاصد الكلمات التي يتورط بها من لايعرف دلالة الألفاظ.

الركيزة الرابعة :

الركيزة الرابعة من ركائز تفكيرهم تقول :

إن اللغة العربية التي نخاف عليها من طغيان العامية محفوظة في القرآن الكريم ولاخوف عليها، وقد تكفل بحفظها القرآن وإن لغة القرآن الكريم قد تكفل الخالق بصيانتها وحفظها بقوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون».

واللغة العربية الفصحى باقية لم تشبها أية شائبة وقد ضمن الله لها الحفاظ من الضياع (٨).

فقه بُــرْد :

هذه الأقوال التي يرددها الطيبون من محبي العامية فيما يكتبون ويذيعون على الناس فيها مغالطة أخرى وسوء فهم قاتل، فهم يعتمدون في أقوالهم، على أن اللغة العربية الفصحى محفوظة مصونة بالقرآن ويزعمون أنه لا خطر عليها مادام القرآن الخالد تكفل بهذا المعنى الذي يفهمون من نص القرآن. وقد ندب نفسه للفتوى في ذلك أكثر من يكتب عن الفكر العامي. والأدب العامي والثقافة العامية، وأجمعوا على القول بذلك. فمنهم من أورد جزءاً من الآية كما في النص الأول؛ ومنهم من أجمل الحديث وأشار إلى أن القرآن حافظ لها كما في الجملة المقتبسة الثانية.

وفتاوى هؤلاء تذكرني بحديث لأهل البصرة مع برد أبي الشاعر بشار بن برد، فقد كان بشار غلاماً صغيراً يؤذّي صبية الجيران وسالكي الطريق المارين بداره، فذهب الجيران إلى أبيه، وشكوا مايلاقون من بذاءة ابنه فرد عليهم بقوله: «ليس على الأعمى حرج» فقال المشتكون هان علينا أذى بشار مع فقه برد، فذهب كلامهم مثلاً.

وأصحاب الأفكار الإقليمية العامية الذي يتصدرون لتفسير القرآن ويدلون بمثل هذه الآراء والحجج يفهمون القرآن مثل فهم برد في حكم الأعمى، فهو لايعنيه من الآية إلا ظاهر معناها الذي يحتاجه للدفاع عن سوء خلق ابنه. وهم كذلك لايعرفون غير ظاهر معنى مايرددون من قول لَـوَوْا معناه حتى يفهم الناس أن المعنى للآية التي يستشهدون بها هو ما فهمه كتبة العامية كما فهم برد معنى «ليس على الأعمى حرج».

ومفسرو الآية كلهم من عامة الناس الذين لوحدث لأحدهم سهو في صلاته لذهب يستفتي العلماء ولم يعتمد على علمه في كيفية الإتيان بالسهو، فضلاً عن ادعاء العلم بتفسير القرآن

وتوجيه نصوص الآيات توجيهاً خاطئاً لايعتمد على أدنى حد من العلم في تفسير القرآن ولم يدفع هؤلاء إلا تبرير مواقفهم وفهمهم الخاطىء الذي يظنونه صواباً.

لقد كان للقرآن ولآياته حرمة في نفوس المسلمين، وقد تحرج عن الخوض في تفسيره كبار الصحابة وعلماء المسلمين وكان الصحابي لايفتى بتفسير آية أو يوجه معناها حتى يسمع في ذلك حديثاً أو يسلح نفسه بسلاح العلم، وحتى يقرأ ويطلع ويعرف ماقيل في تفسير القرآن ثم لايقول رأياً إلا مايقوم عليه دليل. يروى عن أحد الصحابة قوله: ماكنا نتجاوز عشر آيات من القرآن حتى نعرف معناها، ومع ذلك كان الصحابة، بل كبار الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأولون، لايجرأون على القول بالقرآن بغير علم، وقد وقف أبوبكر أمام ذلك وامتنع عن القول بتفسير القرآن بغير علم وقال كلمته المشهورة: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله مالا أعلم، وأعلن عمر بن الخطاب وهو يتلو آية على المنبر أنه لايعرف معناها(٩).

أما كتاب الفكر العامي وحداة الإقليمية وأنصار العامية فلم يكن لديهم حتى مجرد التفكير فيها عسى أن يكون معنى الآية التي يستشهدون بها، قبل الإقدام عليها وصرف معناها ليخدم دعواهم ويؤيد مواقفهم التي يدافعون عنها، ولم يخطر ببالهم أن يقرأوا تفسيراً من عشرات التفاسير الموجودة في كل مكتبة ومسجد ولم يسألوا أهل الذكر كما أمروا بذلك. والسبب أنهم يعتقدون أن قولهم هو الصواب والحق، وأنه لايوجد مايناقض مايذهبون إليه، حتى إن بعض من يدعي المعرفة أو من يظن فيه مثل ذلك شاركهم رأيهم الخاطىء.

لقد سمع مروجو الفكر العامي الناس يقولون: إن سبب خلود العربية هو نزول القرآن بها، ولم يكن أمامهم فسحة من الوقت تسمح بالنظر والتدبر فيما يتحدث الناس، ولم يحاولوا فهم المعنى المراد بحفظ القرآن للغة العربية الفصحى ولكنهم إنما سمعوا القول الذي يقول: إن أسباب خلودها واستمرارها هو نزول القرآن بها، إذ جعلها لغة دينية خالدة، ولم يعرفوا في أي سياق سيق هذا الكلام، وعلى أي مقدمات بنى هذا الاستنتاج فأخذوا من القرآن مايوحى ظاهر معناه بما سمعوا من أفواه الناس دون علم ودون معرفة وبلا تريث ولانظر.

إن الذين قالوا: إن القرآن حفظ اللغة وسبب خلودها وبقاءها حتى يومنا، هذا هم الذين

درسوا تاريخ اللغات وعرفوه ووجدوا أن العربية الفصحى، قد استمرت وقويت وبقيت على مرّ العصور حية، الأمر الذي لم يجدوا مثله لأي لغة أخرى وبحثوا عن سبب ذلك فوجدوا أن هناك تلازماً بين الدين واللغة العربية وأدركوا أن خلود القرآن واستمرار رسالته وفهمه مرتبط بقوة العربية الفصحى وفهمها فوقفوا ضد حركات العاميات وانتشارها وحاولوا وقف زحفها حتى تبقى الفصحى حافظة للقرآن ويبقى القرآن حافظاً لها مفهوماً بها يستعملها الناس في حياتهم وفيما بينهم، فيعلمون دينهم الذي نزل بها ويعلمون فكر العربية وأدبها وكل مافيها، وهذا هو حفظ القرآن للغة وليس المعنى الذي يذهب إليه محبو العامية، وقد فهم المستعمرون هذا التلازم بين اللغة والدين وأنها الوحدة الكبرى الباقية للعرب، فحاولوا نشر العاميات للنفاذ من خلالها إلى مايريدون.

إن الطفل والمرأة والأمي يتكلمون لغة القرآن ويعرفونها ويدركون جمال معناها والركون إلى العامية نقلة بعيدةً عن اللغة الفصحى وفي استمرار انتشار العامية والفكر العامي صرف للسان وصرف للفهم عن اللغة الحافظة للقرآن وهو عكس مايذهب إليه مفكرو العامية. وترديدهم بأن القرآن حافظ للعربية ترديد لآراء قيلت بوجوب المحافظة على سلامة الفصحى وليس وجوب انتشار العامية والاعتماد على فكرها وأدبها وثقافتها وإهمال الفصحى اعتماداً على زعمهم أن الله تكفل بحفظها لأنها لغة القرآن

وقلبهم للمعاني واحتجاجهم لما يذهبون إليه ليس دليلاً على عدم الفهم فحسب، لكنه قد يكون محاولة من الأذكياء منهم لإزالة الخوف من نفوس الناس الذين يحرصون على بقاء اللغة وبقاء الدين، فحاولوا إزالة هذا الخوف من النفوس وطمأنوا الخائفين على القرآن زاعمين لهم أنه إذا كان مصدر خوفهم هو الحرص على بقاء القرآن صافياً مفهوماً فإن القرآن على حد تفسيرهم للآية محفوظ من عند الله، وعلى هذا الرأي والتفسير العلمي المتقن فلا معنى للاهتمام باللغة الفصحى ولامعنى للتردد عن استعمال العامية

ومادام أصحاب الفكر الإقليمي والثقافة العامية ومراسلو الصحف الشعبية وكتابها قد أجمعوا في تفسيرهم على أن القرآن قد تكفل بحفظ اللغة وأن الله قد وعد بذلك في كتابه واستشهدوا بآية من القرآن وحددوها فإن الأمر يقتضي نقل آراء المفسرين الذين فات عليهم

هذا الفهم الجديد الذي فهمه العوام لمعنى القرآن. ولابد من وضع آراء المفسرين القدماء والمحدثين وعرضها أمام مفسري الفكر العامي، لعلهم يعرفون الحق ويعودون إليه. أو تقوم عليهم حجة الإعراض والقول بالقرآن بلا علم.

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى **(إنا نحن نزلنا الذكر)** رد لإنكارهم واستهزائهم في قوله تعالى: **(يا أيها الذي نزل عليه الذكر)** كذلك قال إنا نحن فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والثبات وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها إنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغياً، فكان التحريف، ولم يكل القرآن إلى غير حفظه. فإن قلت فحين كان قوله **(إنا نحن نزلنا الذكر)**، رداً لإنكارهم واستهزائهم فكيف اتصل به قولهم **(وإنا له لحافظون)** قلت: قد جعل الله ذلك دليلاً على أنه منزل من عنده[١٠]، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه، وقيل الضمير (له) لرسول الله ﷺ كقوله **(والله يعصمك من الناس)**[١١].

أما الرازي فيقول في تفسير الآية المذكورة: قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). وفيه مسائل. ثم ذكر من المسائل مانحن بصدد الحديث عنه وهو معنى الحفظ للقرآن الذي أشار إليه مفسرو الآية وموجهوها إلى أغراضهم وأهوائهم، يقول (إنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقص). ثم استطرد في تفسير حفظ القرآن وكيف يتم ذلك، فقال. **(فعجز الخلق عن الزيادة فيه أو النقصان عنه لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن** فيظهر لكل العقلاء أن ذلك ليس من القرآن... وأعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ فإنه لاكتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده من أعظم المعجزات وأيضاً أخبر الله تعالى عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف[١٢].

أما سيد قطب في تفسيره في: «ظلال القرآن» فيقول عن معنى الآية التي يتخبط كتاب وفقهاء الأدب الشعبي في معناها: (وقد أراد الله لهم خيراً مما يريدون بأنفسهم، فنزل بهم الذكر يتدبرونه ويهتدون به، وهو خير لهم من تنزيل الملائكة بالحق الأخير: (إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون).

فخير لهم أن يقبلوا عليه. فهو باق محفوظ لايندثر ولا يتبدل، ولا يلتبس بالباطل ولا يمسه التحريف وهو يقودهم إلى الحق برعاية الله وحفظه، إن كانوا يريدون الحق.. لأنه أراد بهم الخير فنزل لهم الذكر المحفوظ)[١٣].

إذن الحفظ الذي يحتج به «الطيبون» من الناس في الآية يعني حفظ القرآن من الزيادة والنقص والتحريف، وقد صدق الله، فقد تم حفظ كتابه قرآناً يتلى، أُحصيتْ آياتُه فلا يستطيع أحد زيادة آية واحدة أو نقصها، وحفظت سوره فلا يمكن زيادة سورة واحدة فيه أو نقص ذلك. وأُحصيتْ حروفه حرفاً حرفاً فلا يمكن الطمع لأحد أن يزيد حرفاً أو ينقص حرفاً. وهذا هو معنى الحفظ الذي فهمه فقهاء العامية ومفسروها فهماً آخر.

وليس هناك في نصوص القرآن ضمان بدوام اللغة العربية الفصحى واستمرارها حية يستعملها كافة الناس ويفهمها القطاع الكبير من المجتمع، إذا لاسمح الله أعرض عنها أهلها، وأحلّت كل طائفة منهم لهجتها العامية محل لغتها العربية وأسوق على ذلك مثلاً يعرفه كل من يبحث عن الحقيقة والمعرفة ويريد الصواب وينظر إلى الأشياء كما هي في طبيعتها، وليس كما يريدها هو إن اللغة العربية الفصحى لغة القرآن كانت هي اللغة التي تكتب بها علوم الدين ويقرأ بها القرآن ويتكلمها العلماء وعامة الناس، وكانت هي لغة الحياة والفكر والأدب والدين في جميع الممالك والدول الإسلامية الشرقية من إيران حتى سد الصين. وكانت الدول الإسلامية التي قامت في تلك الديار تتكلم العربية لغة رسمية ــ كما يصفها عندنا اليوم العوام. ــ وماكان لها منافس في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة. ولم يستعمل المسلمون في شئون الحياة غيرها لأنها لغة القرآن ولغة الأمة المسلمة، ولغة الوحدة التي تجمع كيان الأمة كلها

وعندما شعرت تلك الأقاليم الإسلامية بالضعف والتفكك نشأ عندها شعور بقوميتها واقليميتها مثل شعور هواة الفكر العامي والثقافة العامية بأقليتهم وقوميتهم، فاهتم المسلمون في تلك الدول بلهجاتهم المحلية، وزعموا أن اللغة الفصحى لغة القرآن واللغة الرسمية محفوظة ولاخطر عليها مثلما يزعم أخواننا هواة العامية اليوم، وبدأت تظهر إلى الوجود فكرة مدح لغاتهم ولهجاتهم المحلية وربط قوميتهم بها وأصبح لكل قطر لغة محلية مع اللغة الرسمية واستمر الحال تدريجياً بعض الوقت حتى تأصلت في نفوسهم مكانة لهجاتهم المحلية ومالبثت أن أصبحت تلك اللهجات لغات مستقلة لتلك الأمم والأقطار، وبدأ ذلك بظهور شعراء مبدعين باللهجات المحلية العامية مع اللغة العربية الفصحى فتوجهت الأقاليم الإسلامية إلى لهجاتها ولغاتها المحلية وبجدت شعر شعرائها الذي بدأ ينظم بتلك اللغات، وبدأ الابتعاد شيئاً فشيئاً عن لغة القرآن الحافظة له كما يزعم العوام، وقام الشعر والشعراء بدور جلي في تهيئة الفكر واللغة المحلية للانفصال والاستقلال عن العربية الفصحى ولم يمر قرنان حتى استقلت الأقاليم الشرقية بلغاتها المحلية وانتهت العربية من هناك إلى الأبد. ولم يحفظ القرآن اللغة العربية لهم في بلادهم عندما أهملوها، وأحلوا لغاتهم المحلية مكانها.

ونحن واياهم في نظر الإسلام سواء، والقرآن لايميز بين عربي مسلم، ومسلم من غير العرب. ولو كان القرآن قد تكفل بحفظ اللغة العربية الفصحى للمسلمين حتى تبقى لغة لهم لحفظها للمسلمين في باكستان وإيران، وبنغلاديش، وتركيا وغيرها وكلها دول اسلامية وشعوب مسلمة، ماتت اللغة العربية عندها وانحصرت معرفتها في القلة من علماء تلك الأمم مثلها هي حال اللاتينية عند المسيحيين، حتى وإن بقي القرآن متلواً وبقيت الدول إسلامية. أما إن كان لدى مفكري العامية رأي أو دليل بأن القرآن قد تكفل للعرب خاصة بحفظ لغتهم العربية الفصحى وضمان بقائها فليعلنوا ذلك ويأتوا بشهدائهم إن كانوا صادقين.

والدول التي مثلت بها واقع مشاهد محسوس أمام الأنظار ولا أظن مفكري العامية يستطيعون القول بأن هذه الدول تتكلم العربية وأن القرآن قد حفظ العربية لها. ونحن وتلك الشعوب في حكم القرآن سواء فلماذا لم يحفظ القرآن العربية الفصحى لهم وهم مسلمون مثلنا عندما لم يحفظوها هم لأنفسهم ؟ وكيف ضاعت العربية التي كانت لغة القرآن

ولغة الأمة عندهم على مدى خمسة قرون عندما أراد أهل تلك البلاد إحلال لهجاتهم محلها ؟

لقد كان دعاة الإقليمية والانفصال منهم يقولون مثلما يقول العوام هنا: إن اللغة العربية لغة القرآن محفوظة به ولاخوف عليها، حتى غرروا بالطيبين الذين صدقوا نبوءاتهم فذهبت لغة القرآن وقامت لغات أعجمية مكانها ولم يستطيعوا العودة إلى الصواب.

إن الدفاع عن اللغة العربية ليس لأنها لغة القرآن فحسب، ولكن لأنها أيضاً لغة الأمة العربية في جميع أقطار الأرض ولأنها عنوان الوحدة التي تجمع هذه الأمة، ولأنها حوت موروث الأمة الفكري والحضاري منذ ألف وخمسمائة سنة، ولأنه لاتوجد عامية يمكن أن توحد العرب أو تجمع تاريخهم وأصالتهم غير العربية، ولأن الاهتمام بالفكر العامي والثقافة العامية سيشغل حيزاً من الأجدى شغله بما يطور الفصحى ويقربها إلى حياة الناس الخاصة والعامة ويجعلها إن لم تكن لغة الحديث اليومي في كل شيء لغة باقية مستمرة كما كانت من قبل يفهمها كل العرب على اختلاف لهجاتهم وتباين أوطانهم، وعلى اختلاف نصيبهم من العلم والمعرفة.

والاهتمام بالعامية كما هو حاصل في الوقت الحاضر سيجعل اللغة العربية الفصحى والقرآن الكريم الذي يزعم أنصار الفكر العامي أنه يحفظها، سيجعلها لغة أخرى، هي وقرآنها، لايفهمها عامة الناس ولايتذوقون جمالها الفني ولايدركون معانيها السامية، ثم تبعد شيئاً فشيئاً حتى تصبح لغة دين ــ وليست لغة حياة ــ يتعامل بها القلة من الناس مثلما هو حال اللاتينية التي أصبحت لغة الكنيسة وليست اللغة الحية للأمم المسيحية ويصبح فهم العرب للقرآن كفهم المسلمين من غير العرب له حيث يقرأونه دون أن يعرفوا معناه أو يتلذذوا بجماله الفني وبلاغته المؤثرة في الألباب والساحرة للفؤاد عند من يدركها ويعرفها دون مترجم أو رحل دين يقف أمامهم يفسر لهم مايقيمون به شعائرهم الدينية ثم تنتهي صلتهم القوية به في ذلك المكان مثل ماهو حاصل في البلاد الإسلامية كلها التي غلبت عليها لهجاتها المحلية فتركت لغة القرآن فبعدت عنه وانغلق فهمه عليها. وقد أدرك ابن خلدون خطورة بعد اللسان عن استعمال الفصيح من الكلام وقال: إن ذلك سبباً بانغلاق القرآن والحديث على المفهوم ووصف السمع بأنه أبو الملكات اللسانية[١٥].

واستمرار لغة العرب ولغة القرآن، لغة دين ولغة حياة ولغة أمة توحد أجزاءها، رغم اختلافاتها السياسية والإجتماعية ورغم تعدد اتجاهاتها هو ماكان يحسدنا عليه أعداؤنا.

وقد تحدث أكثر من عالم أجنبي،وحاضر أكثر من مفكر عن معجزة اللغة العربية، وذكر الذين يهتمون بدراسة اللغة كنشاط انساني استغرابهم لاستمرار اللغة العربية الفصحى في طريق الحياة حتى الآن وخروجها على القاعدة.

وقالوا : إن هذا مالم يحدث لأي لغة من لغات الأمم. واستكثروا بقاءها وصمودها رغم ضعف أهلها وذهاب سلطانها منذ أمد بعيد. وقد حاول الغربيون الذين حتمت مصالحهم عليهم التعامل مع الفكر العربي خلخلة بنيان اللغة وبعث الشك في قدرتها على الدوام والاستمرار القوي الذي يلبي حاجة الأمة حتى يدحلوا من أضعف نقاط الارتكاز في منعطف الفهم الذي يتمتع به عدد غير قليل من العرب ولله الحمد على كل حال

الركيزة الخامسة :

من الحجج التي تعرض في تبرير استمرار العامية آراء تقول إن ٨٠٪ من سكان الجزيرة يفهمون العامية أدباً وفناً[١٦] وإن الاقبال على صفحاته في الصحف شيء لامثيل له مما يدل على أن أغلب الناس يحبون الأدب العامي[١٧]. وإن التعبير العامي هو الوسيلة المتاحة للكثير من الناس[١٨].

هذه الحجج نماذج حية تدل على استبداد الهوى وميل العاطفة عند أنصار الأفكار الإقليمية وأمثلة أخرى على المغالطة المكشوفة، لأن إيراد النسبة الكبيرة وهي ٨٠٪ لايقوم على أساس صحيح وليس الغرض منه غير التهويل بشعبية العامية وكثرة عشاقها وهي نسبة غير صحيحة للأسباب التالية :ـ

أولاً . الذين يشيرون إلى هذه النسبة لايعرفون عدد سكان المملكة حتى يحددوا نسبة العوام منهم بهذا العدد ولم يقوموا باحصاء رسمي ولم يعتمدوا على مصادر علمية تحدد الذين يفهمون العامية ويحبونها. ولم يشيروا إلى مصادرهم التي استقوا منها معلوماتهم.

ثانياً : الحديث عن نسبة ٨٠ ٪ أو أي نسبة كانت، حديث عن الشعر النبطي خاصة وليس

عن كل أنواع الفنون العامية من الشعر وغيره في مناطق المملكة كلها[١٩] والشعر النبطي شعر إقليمي لايفهمه إلا أبناء القبائل العربية وبعض حاضرة نجد. ونسبة هؤلاء إلى السكان لاتصل إلى هذا العدد على فرض أنهم جميعاً يفهمون الشعر النبطي، وليس الأمر كذلك ففي هؤلاء نسبة لابأس بها لاتفهم الشعر العامي ولا تطرب لـه ولاتعرف معناه وقد سألت في بيت الدكتور سعد الصويان شابين من أساتذة جامعة الملك سعود أحدهما من منطقة القصيم والآخر من اليمامة عن معنى بيتين من الشعر العامي «النبطي» ومعناهما من الوضوح بمكان إذ إن موضوعهما خلق الكرم والمروءة واحترام الجار ومكانته عند العرب. فلم يعرفا مما أقول شيئاً حتى تدخل الدكتور سعد، وترجم لهما معنى البيتين العاميين ترجمة فورية. واحتج لقصر فهمهما بأن ملكة الشعر وفهمه مختلفة لدى الناس حتى وإن كانوا يفهمون لغته التي قيل فيها فأتيت لهما ببيتين من الشعر الفصيح يعنيان نفس المعنى الذي عناه البيتان السابقـان ففهمـا معناهما رغم أنهما لم يسمعا الشعر العربي أو العامي من قبل كما ذكرا لي.

إذاً النسبة مبالغ فيها إذا أريد بها السكان عامة وليست دقيقة، أما الإقبال عليه وعلى ماينشر في الصفحات الشعبية، ممن يفهمه فهي حقيقة لأن الصفحات الشعبية أصبحت هي الوسيلة لكل من يريد أن يقول في العامية رأياً أو يعرف عنها شيئاً.

وإقبال نسبة كبيرة من الشباب المتعلم المثقف على صفحات الأدب العامي تجعل خطورته متحققة للأسباب التالية :

أولاً : إغراؤهم به لسهولته وقرب مأخذه عليهم. وكثرة الاعتناء بالعامية وبأدبها إنْ شعراً وإنْ نثراً تجعل الخوف على فكر الشباب وثقافته وارداً وتجعل الابتعاد به عن لغة دينه وأمته أمراً متحققاً، ولاسيما إذا وجدوا أن العامية مهيأة لهم ووسائل الإبداع فيها ميسرة بل مشجعة مفضلة.

ثانياً: النسبة الكبيرة التي تقبل على العامية في الوقت الحاضر من الشباب الذين لايعرفون العامية التي كانت منتشرة قبل عشرين عاماً وإقبالهم على العامية الآن وإتاحة أسباب تعلمها والاهتمام بها من وسائل الإعلام عامة، يصرفهم عن التعليم ويحول بينهم وبين صلتهم بالثقافة العربية والإسلامية ويحد من نشاطهم الفكري. مع أن مايبدعون من أفكار عامية في

الوقت الحاضر يعد متخلفاً عن العامية التي كانت قبل ثلاثين عاماً وساء شعرهم وموضوعاته وصوره وفنونه مختلفة ومتخلفة أيضاً .

الركيزة السادسة :

تقول: إن أغلب مفردات العامية والأدب العامي عربي فصيح ولا يمكن أن يكون فيه خطورة على اللغة العربية[٢٢].

أما أن أغلب مفرداته عربية فصيحة سليمة المبنى والمعنى فنحن لانختلف مع أهل الرأي القائل بعروبة أغلب مفردات اللهجات العامية في الجزيرة اليوم. وإن كانت نسبة لابأس بها قد بعدت عن أصلها العربي الفصيح. والكثير من المفردات العربية الفصيحة التي بقيت على ألسنة العوام قد قلب معناها، واستعمالها اليوم ليس من الضرورة أن يكون هو ماكانت تستعمل فيه. وعلى أي حال فإن المفردات الفصيحة الباقية في العامية توجب علينا عند تحقق صحتها وفصاحتها، أن يستعمل الحريصون على لسان الأمة الواحدة هذه الفصاحة، ثم يردون مفردات العامية إلى اللهجات القديمة ويقربونها إلى أصلها العربي مادام الأمر ممكناً ومادامت مفردات العامية صحيحة سليمة. بدل تغريب القليل من مفردات اللغة وجرّها إلى مهابط العامية والابتعاد بها شيئاً فشيئاً حتى تنطمس معالم الفصاحة فيها وتبعد القربى بينهما وتوغل العامية بالانتقال التدريجي فتوضع لها الأسس والقواعد ويرسخ استعمالها في معكر الأجيال وينشر أدبها ويكتب حتى تصبح لغة أخرى جديدة وبعيدة عن الأصل الذي نشأت عنه واستقلت منه.

مع أن أسباب انتشار العامية في الماضي هو ــ كما لايختلف على ذلك كثير من الباحثين ــ نتيجة لندرة المتعلمين وقلة التعليم فيما مضى من فترات مرت بكل البلاد العربية، ولم يسلم منها أي بلد عربي. أما في وقتنا الحاضر فالأمية مدبرة لاشك في ذلك والثقافة مزدهرة والتعليم يطارد شبح الجهل في جميع البلاد العربية. والاهتمام بالعامية فكراً ولغة وقيمة اجتماعية يناقض الهدف الذي تسعى إليه الأمة العربية كلها، ويثير السؤال الذي لانجد له إجابة كافية وهو لماذا الاهتمام بالفكر العامي واللغة العامية مع وجود البديل ووجود الثقافة الفصحى وامكانية الرقي بها إلى مستوى أعلى؟.

لقد انحت في الحاضر اللهجات العامية التي كانت قبل عشرين عاماً عاميات متباعدة، وكان

في ذلك الوقت لايستطيع أهل إقليم من أقاليم الجزيرة فهم عمية الإقليم الآخر[21]

وأصبحت اللغة في طريق الاتصال والتعامل والارتقاء إلى الفصاحة، وهذا الرقي التدريجي يجب أن يكون مشجعاً ودافعاً إلى الاستمرار في استعمال الفصحى، وهجر اللهجات الدارجة واللكنات الإقليمية. ولم يبق إلا أن تقوم مؤسسات التعليم ووسائل الثقافة المساعدة الأخرى مثل التلفاز والصحف والمجلات بالابتعاد عن الابتذال اللغوي حتى تنشط اللغة العربية الفصحى. ولو حدث ذلك فلن يكون هناك شك بأن فترة قصيرة جداً ستعيد للفصحى مكانتها في نفوس الناس وعلى ألسنتهم، وتعيد لها الثقة التي بدأت تفقدها وستصبح العامية في حيزها الضيق وعلى ألسنة العوام الذين لايعرفون غيرها وعندئذ تصبح لاخطر منها ولاضرر من بقائها حيث هي حتى وإن لم تمح من الوجود من إنها لن تمحى وستدوم وتبقى ويبقى من يتكلم بها ويقول الشعر والغناء والرقص بها ولا خطر في ذلك ولا ضرر منه بل هو أمر طبيعي ومقبول ولا ينكره أحد.

الركيزة السابعة:

الركيزة السابعة من الركائز التي برروا بها استعمال العامية واستمرارها، وضرورة الاهتمام بها تتلخص في نقطة واحدة. هي أن الأدب العامي في الماضي حفظ لنا في الحاضر الكثير من الأحداث التي كانت في الجزيرة إبان عصور العامية.

وقالوا: إنه مصدر وحيد لتاريخ الجزيرة السياسي والاجتماعي، وليس هناك مصدر غيره يمكن أن ينقل لنا حقائق الأوضاع التي عاشها أجدادنا في ذلك التاريخ[22]

وعلى صحة القول بأخذ الشعر كشاهد يصور موقفاً من المواقف أو يصف حدثاً من الأحداث أو معركة من المعارك، إلا أن المؤرخين لايعتبرون الشعر مصدراً أساسياً للتاريخ إذا كان وحيداً في نقل الخبر ولايعتبرونه مصدراً للأحداث التي يرصدها التاريخ يستوى في ذلك الشعر العربي الفصيح والشعر العامي، والشعر في أي لغة من لغات الأمم.

والسبب الذي جعل المؤرخين لايعتمدون الشعر هو أن الشاعر وإن انفعل بالحدث التاريخي ووصفه في شعره وتحدث عنه وذكره إلا أنه يهمل نقطتين أساسيتين يعتمد عليهما التاريخ كل الاعتماد هما الزمان والمكان وإهمال هاتين النقطتين يفقدان الشعر الكثير من

قيمته التاريخية ويجعلانه قليل الفائدة للاعتماد عليه كمصدر وحيد للتاريخ مالم تتوفر أخبار وروايات أخرى تقرر الحادث الذي يصوره الشعر.

أما إذا توفرت الأخبار من مصادر تاريخية غير الشعر وصاحب تلك الأخبار شعر يشهد لها ويصفها ويصورها فإن بعض المؤرخين يوردون منه مواطن الشاهد حتى يجسم الصورة ويصف الانطباع الذي خلفه الحدث في نفوس الشعراء ومن استعمل ذلك في تاريخه شيخ المؤرخين ابن جرير الطبري.

ولو تناول المتحدثون عن أهمية الشعر العامي «التاريخية» في الماضي جانباً آخر عبر التاريخ وهو أن الشعر سجل ووصف مكارم الأخلاق وأشار إلى بعض الأسر والعوائل من أبناء الجزيرة العربية الذين كان لهم في ماضينا القريب أمجاد وأخلاق عرفت عنهم وسجلها الشعراء وذكروها بالكثير من قصائدهم. لو فعلوا ذلك لكانوا قد أصابوا كبد الحقيقة، ووفقوا في استعمال دلالة الشعر في مكانها المناسب لأن بعض الأسر وشيوخ القبائل العربية الضاربة في غرب الجزيرة وشرقها وفي وسطها وشمالها وجنوبها، وفرسانها وأجوادها كان لهم في الماضي ذكر وفضل ومروءة وصفها الشعر العامي وسجلها الشعراء في تلك الفترة. ولانجد لها اليوم دليلاً في زحمة الادعاء والتبجح غير ماقال الشعراء العوام وماوصفوا.

وأبناء القبائل العربية وبعض سكان المنطقة الوسطى الذين يعرفون الشعر «النبطي» العامي يعرفون أكثر من شاهد يردده الرواة وتتناقله الألسن يجسد القيم الاجتماعية الفاضلة التي عرفت عن الأمة العربية منذ القدم. وهي سجايا ورثها العربي بطبعه وجبل عليها وأداها بلغته العربية عندما كانت لغته مساعفة وطبعه مؤاتياً ولسانه طلقاً، وأدّاها بعاميته التي يحسن عندما بعدت به الحياة عن المنبع الصافي للغة التي كان يتحدثها آباؤه وقد بقي له الخلق الكريم والجبلة التي جبل عليها، بقيا له في كلا الحالين، ولم تضعفها الأحداث ولم يتزحزح عنها العربي إن فصيحاً وإن عامياً. ومن قيم العربي التي حافظ عليها وأبقاها حية في ضميره وعلى لسانه، الكرم، وسخاء النفس والبشاشة للضيف، وطارق الليل، وإطعام الجائع وإكرام الغريب، والدفاع عن المحارم، والغيرة على الحوزة، والتسامح في موضع التسامح، أو الانتقام عندما لاينفع شيء غيره.

كل تلك القيم الاجتماعية كانت سلوكاً وطبعاً جبل عليه العربي ابن هذه الجزيرة، فافتخر بها ومجد الصابرين عليها وتغنى بها وعبر بلسانه الذي يعرف ويحسن وكانت العامية هي لسانه الذي ينطق به خلال القرنين الماضيين لاشك بذلك.

أما القول بأن الشعر العامي هو المصدر الوحيد الذي نقل إلينا أحداث التاريخ الماضي التي حدثت في جزيرة العرب، ولامصدر سواه فهو قول أقل مايجب أن يوصف به أنه إجمال وتعميم لايسنده شيء من الحقيقة العلمية. وكان الأجدر بمن يقول بهذا القول أو يعتقد هذا الاعتقاد أن يحدد مصدر التاريخ ويعرّفه حتى يميز الباحث إن كان تعريفه ينطبق على الأدب العامي أو لاينطبق عليه.

إن إطلاق القول بأن الشعر العامي هو مايعول عليه في دراسة أحوال سكان الجزيرة في مختلف النواحي أو أنه كل ماسيجده الباحث فهي أقوال وآراء ليس لها نصيب من الحقيقة ولاتعتمد إلا على حسن النية بفهم القارىء. ولو صدر هذا القول عن كاتب واحد لاعتبر زلة قلم أو عثرة لسان. أما وقد قال به أكثر من كاتب وتحدث عنه أكثر من متحدث، وتواطأت على القول به الآراء كلها[٢٣] التي تتحدث عن العامية، حتى كاد يصبح قناعة وأمراً مسلماً به فلابد والحال كذلك من دراسة حقيقة هذه الأقوال وبيان الخلل العلمي فيها وخطأ استعمالها، استعمالاً لايسنده إلا هوى النفس والضرب بعلم القارىء وعقل الباحث عرض الحائط.

الأمر الأول: هو ان أول نقطة تطرح للمناقشة هي قول القائلين بالرأي السابق حيث عمموا الحكم على الجزيرة العربية كلها ولم يستثنوا منها موضعاً مع أن في الجزيرة مدناً وعواصم إسلامية لم تخبو بها شعلة العلم ونور الإيمان ولو لم يوجد من ذلك غير مكة المكرمة والمدينة المنورة ومن فيهما من العلماء وأهل الذكر وحلقات الدرس لوجب على من يرسل القول بلا دليل التروي قبل إصدار الحكم فالجزيرة لم ينقطع تاريخها كلها[٢٤]، ويكفي أن حُجاج الأمصار الإسلامية كانت تمد كل عام ويصحب قوافلها العلماء والمؤرخون وكتاب الرحلات الذين يصفون أحوالها ويصفون الطرق المؤدية إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة التي تسلكها قوافل الحجاج من جهات الجزيرة الأربع ويصفون كل جزء من هذه الجزيرة وكل رحلة ومنزل، ثم يصفون الحياة في الحجاز وفي الطرق المؤدية إليه ومسالكها من نجد واليمن

وغيرهما. وسأشير إلى بعض الرحلات التي فصلت الحديث عن أحوال الجزيرة في القرون التي بدأت فيها العامية تنتشر وينظم فيها الشعر، وقد وصف كتابها حياة السكان وحرفهم وعددهم وطرق معيشتهم وتكوينهم السياسي وتركيبهم الاجتماعي والظروف التي تسود في كل عام وتحدثت هذه الرحلات عن واقع الجزيرة وسجلت أخبارها، ومنها :ـ

٠١ رحلة القاصدين، ورغبة الزائرين ـ عبد الرحمن بن أبي القاسم النساوي، حج عام ١١٤١هـ.
٠٣ رحلة الوزير الاسحاقي ـ أبو محمد الشرقي الاسحاقي، حج عام ١١٤٣هـ
٠٤ بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام ـ عبد المجيد بن علي الملقب بالزيادي، حج عام ١١٤٨هـ.
٠٥ رحلة إلى الحرمين ـ أحمد اللكوس الخفيكي، حج عام ١١٥٢هـ.
٠٦ الرحلة الحجازية ـ أبو مدين محمد بن الصغير الدرعي، حج عام ١١٥٢هـ
٠٧ الرحلة الكبرى ـ محمد بن عبد السلام الناصري، حج عام ١١٩٦هـ
٠٨ احراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام ـ محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، حج عام ١٢٠٠هـ[٢٥].
٠٩ مرآة الحرمين إبراهيم رفعت ـ حج عام ١٣١٩هـ.

نورد هذه الرحلات مجرد تمثيل ونماذج لما كان يكتب كل عام عن الجزيرة وعن أهلها وقد اخترنا القرن الثاني عشر الهجري، وعرضنا ماكتب به وهو القرن الذي وصل إلينا به الشعر العامي، الذي يزعم الزاعمون أنه مصدر وحيد لتاريخ الجزيرة كما سبقت الاشارة. أما إذا افترضنا أنهم يعنون بالجزيرة وسطها «نجدا» ولم يقصدوا الجزيرة كلها عندما رددوا أقوالهم السابقة. فلا بد إذن على أساس هذا الفرض أن ينظر الباحث إلى وسط الجزيرة «نجد» ويعرف أحوالها، وبداية الشعر العامي الموثق الذي اعتمدوا عليه وعدّوه مصدراً وحيداً لتاريخ الجزيرة. وتاريخ الشعر العامي قد خدمه وتصدى لدراسته دراسة علمية تاريخية عدد كبير من الكتاب[٢٦] تواترت آراؤهم على أن الشعر العامي الذي عرف شعراؤه وحفظ شعرهم ونسب إليهم، بدأ في القرن الحادي عشر الهجري، ومنهم الأستاذ عبدالله بن خميس الذي يقول في

بحثه الأدب الشعبي: (وأقدم من دُوِّنتْ أشعارهم، راشد الخلاوي، وأبو حمزة العمري من أهل الأحساء، وقطن بن قطن من أهل عمان ورميزان وجبر بن سيار من أهل سدير، في نجد، وقد عاش هؤلاء في القرنين العاشر والحادي عشر من الهجرة، وكانوا ينظمون الشعر النبطي على أوزان الشعر الفصيح وتفاعليه وبحوره ولايقيمون الإعراب لفساد اللغة).

ورأي الأستاذ ابن خميس هو أقرب الأقوال إلى الصواب، ومعه أكثر الباحثين الذين حددوا بدايته في هذه الحدود. أما أبو عبد الرحمن بن عقيل وهو أحد الدارسين لتاريخ هذا الشعر فقد تلمس بداية الشعر العامي بلغة أهل نجد كما يسميه، فحاول مدّ الزمن أمام بدايته وجعل لها احتمالاً في القرن السابع الهجري مفترضاً افتراضاً بأن راشد الخلاوي ـ الذي يعتبر شعره نمطاً خاصاً في بناء القصيدة العامية ـ من أهل ذلك القرن. ولم يلبث إلا قليلاً حتى افترض افتراضاً آخر أنه ـ أي راشد الخلاوي ـ ربما يكون من أعيان القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الهجريين واضعاً لوجوده احتمالاً في كل قرن مرّ به من السابع حتى الثاني عشر

واحتمال يدور في بحر ستة قرون جدير بباحث مفكر مجتهد مثل أبي عبدالرحمن رفضه والشك في صحة الاعتماد عليه. وتحديد زمن شخصية موجود في أيدينا أهم نتاجها وخصائصها وهو شعرها لايمكن أن يدور الباحث بها هذه الدورة الطويلة في سلم الزمن بهذا البعد. والاختلاف فيه لايجوز أن يتجاوز الباحث في تحديده قرن أو قرنين من الزمان. ولايرضى مافتراض ستة قرون لشخصية نحفظ جلّ ماسبب لها من شعر ومامسب لها من علم فلك، باحث يود أن يؤخذ رأيه مأخذ الجد والقبول. والأجدر بأن يحاول تحديد أي القرنين الحادي عشر أو الثاني عشر الهجريين يمكن أن يكون هو عصر راشد. أو ينضم إلى الافتراض الذي تقاربت حوله آراء الباحثين في تاريخ العامية. وهما القرنان العاشر والحادي عشر، ويد الله مع الجماعة. ومادام الخلاوي مشكوكاً في شعره وعصره وفي شخصه أيضاً، فلا يمكن الاعتماد على المشكوك في وجوده أصلاً، ولايمكن الاعتماد على شعره كمصدر للتاريخ، مع أن الباحثين لم يتفقوا على عصره ووجوده فضلاً عن الاستدلال بشعره.

أما أول ماحفظ من شعر عامي صحيح النسبة إلى شاعر بعينه عرف عصره ووثق ونسب

إليه نسبة صحيحة، فهو شعر حميدان الشويعر. وشعره يمكن أن يعتمد على صحة نصه وتوثيقه ونسبته إليه وهو ذات معروفة. وماسبق ذلك من شعر عامي فلا يمكن أن يعتمد عليه: إما لأن قائله مجهول الذات[٢٧]، أو لعدم تحقيق نسبة الشعر المحفوظ إلى قائل معين[٢٨] أو أن زمن الشعر وزمن قائله لايزالان مجهولين[٢٩] أو لأن النص نسب إلى عدة شعراء عاشوا في فترات تاريخية متفاوتة. مع مايصاحب النص السائب والرواية الشفوية من حذف وتعديل وإضافة[٣٠].

وحميدان الشويعر كان معاصراً لظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ومنذ ظهور تلك الدعوة وحتى اليوم، ونجد موضع اهتمام المؤرخين من أهلها ومن الأمصار الإسلامية. سواء تلك التي انضمت إلى الدعوة وأيدتها أو تلك التي وقفت منها موقف المعارضة. وحاولت تفنيد آراء الشيخ الإصلاحية التي نادى بها. ومع حركة الشيخ وقيام الدولة السعودية في مراحلها الأولى والثانية والثالثة. والمؤرخون من أهل نجد ومن العالم العربي والإسلامي يتابعون أحداث وسط الجزيرة وأطرافها ويسجلون تاريخها يوماً بيوم وأشهر مؤرخي نجد بن بشر وتاريخه «عنوان المجد في تاريخ نجد» مطبوع محقق منشور ومنه ننقل هذه الجملة التي تظهر منحى ابن بشر واهتمامه في كل صغيرة وكبيرة تحصل في الجزيرة «نجد» وفي غيرها وتؤرخ لأحداثها، وتنقل لنا كل المعلومات الموثقة المحققة التي توفر فيها عنصر الزمان والمكان، يقول: (ثم دخلت السنة العشرون بعد المائتين والألف وفي هذه السنة اشتد الغلاء والقحط على الناس في نجد ومايليها، وسقط كثير من أهل اليمن، ومات أكثر إبلهم وأغنامهم وفي آخرها في ذي القعدة بلغ البر ثلاثة أصع بالريال، وبلغ التمر سبع وزنات بالريال وبيع في ناحية الوشم والقصيم خمس وزنات بالريال، وأما مكة فالأمر فيها أعظم مما ذكرنا بسبب الحرب والحصار وقطع الميرة والسابلة عنها)[٣١].

هذه أسطر معدودة من حوادث عام واحد حدثنا المؤرخ فيها عن كل شيء في نجد وأقاليمه وأحداث الجزيرة كلها، في الحجاز واليمن والشام والعراق ووصف القضايا الداخلية والخارجية وتحدث عن الحياة بعامة وفصل كل ذلك في ثماني صفحات من تاريخه ولم يفته أن يخبرنا بأسعار الطعام والمؤنة وكم ثمن الصاع وقيمة الوزنة وعن موت الماشية وانحباس الغيث الشيء الذي لم يلتفت إليه أكثر المؤرخين في الماضي البعيد ولا في الحاضر ومع ذلك كله يقول محمد العامية: إن

الشعر العامي هو المرجع الوحيد لأحوال سكان الجزيرة ولا مرجع غيره ويريدون من القارىء أن يصدق ذلك ويؤمن به ويعض على العامية بالنواجذ وإلا ضاع تاريخه وضاع ماضيه. وقد لانحتاج إلا إلى هذه الإشارة من مصدر واحد. ومن أراد مزيداً من المعلومات الدقيقة المفصلة عن تاريخ الجزيرة كله فليرجع إلى كتب المؤرخين من أهل نجد ومن غيرهم التي سيشار إلى أسمائها في هذه الصفحات حتى يتأكد إن كانت الجزيرة غفلاً إلا مما يسجل العامي من أحداث أو كانت أحداثها التي واكبت انتشار العامية مسجلة موثقة محفوظة.

ولم يكن تاريخ ابن بشر الذي نقل منه النص السابق هو المصدر الوحيد الذي أرخ للأحداث في وسط الجزيرة في العصور التي انتشرت فيها العامية بل سبقه وجاء بعده عدد كبير من المؤرخين من أهل نجد خاصة، منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١) أحمد بن بسام توفي عام ١٠٤٠هـ.
٢) أحمد بن محمد المنقور أرخ لنجد من عام ٩٤٥ ـ ١١٢٥هـ.
٣) ابن يوسف، أرخ لنجد حتى عام ١٠١١هـ.
٤) عبدالله بن عضيب، أرخ بعض الحوادث وتوفي عام ١١٦٠هـ.
٥) حسين بن غنام أرخ لنجد وحوادثها وكتب عن تاريخ الدعوة الإصلاحية فيها حتى عام ١٢٢٥هـ.
٦) محمد بن بسام، كتب عن القبائل العربية وأنسابها في نجد عام ١٢٣٣هـ.
٧) محمد بن عمر بن حسن الفاخري، توفي عام ١٢٧٧هـ، وتاريخه محقق منشور.
٨) حمد بن لعبون أبو الشاعر العامي محمد بن لعبون
٩) عثمان بن سند، أرخ حوادث نجد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.
١٠) عثمان بن بشر الذي اطلع على أغلب ماسبقه من كتب المؤرخين وضمن تاريخه كل الحوادث التي ذكرها المؤرخون النجديون السابقون له مما جعل لتاريخه قيمة مهمة.
١١) راشد بن جريس، كتب تاريخاً عن نسب آل سعود، وتعرض لتاريخ نجد وقد ألف تاريخه عام ١٢٩٤هـ بناء على طلب الأمير عبدالله بن ثنيان ابان ضعف الدولة السعودية الثانية واضمحلالها.

١٢) محمد بن عبدالله بن حميد توفي عام ١٢٩٥هـ ذكر تاريخ الحنابلة ومنهم أهل نجد.
١٣) ضاري بن فهيد الرشيد أملى في عام ١٣٣٢هـ تاريخ القرن الثالث عشر الهجري في نجد.
١٤) ابراهيم بن صالح بن عيسى، توفي عام ١٣٤٣هـ له تاريخ (عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في القرن الثالث عشر والرابع عشر) [وقد بدأت من حيث انتهى ابن بشر حيث تكتمل سلسلة تاريخ نجد في العصور التي ذكر محبو العامية أن الشعر العامي هو المصدر الوحيد لتاريخه][٣٢].
١٥) مطلق بن صالح بن مطلق وله تاريخ (شذى الندى في تاريخ نجد) وشاركه ابنه في ذلك.
١٦) عبدالله بن محمد بن بسام، توفي عام ١٣٤٨هـ.
١٧) ابراهيم بن محمد القاضي عاش حتى عام ١٣٤١هـ.
١٨) ابراهيم بن ضويان توفي عام ١٣٥٣هـ.
١٩) سليمان بن صالح الدخيل، كتب أحداث نجد وتاريخها، وتوفي عام ١٣٦٤هـ.
٢٠) مقبل الذكير، أرخ لنجد منذ بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى عام ١٣٥٣هـ واعتمد على الوثائق والمعلومات الحديثة.
٢١) محمد بن مانع كتب عن أمراء عنيزة وكتب عن أعيانها توفي عام ١٣٨٥هـ.
٢٢) ابراهيم بن عبيد بدأ تاريخه عام ١٣٦٧هـ، وانتهى به عام ١٣٥٢هـ.
٢٣) سعود بن هذلول كتب عن تاريخ الأسرة السعودية منذ بدايتها حتى عام ١٣٧٣هـ)[٣٣].

أضف إلى ذلك جهود الرحالة الغربيين الذي جابوا الجزيرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً أثناء القرون التي انتشر فيها الشعر العامي، وقد وصفوا الحياة فيها وتحدثوا عن أحوال سكانها وحياتهم السياسية والاجتماعية، وتحدثوا عن النظم القائمة فيها وعن الشخصيات ذات النفوذ المؤثر في وسط الجزيرة وأطرافها. ورحلاتهم مطبوعة موجودة محفوظة[٣٤] وليس غرض هذا البحث جمع النصوص والإشارة إليها ونقلها فلو حصل ذلك لاحتاج الباحث في هذا الموضوع إلى أجزاء متعددة. وكتب تاريخ نجد وجهود

مؤرخيها مشهورة يعرفها أقل الناس اهتماماً في تاريخ الجزيرة وليست الاشارة إليها إلا رداً على الأقوال التي تكرر في الصحف والمجلات والوسائل الإعلامية الأخرى فيقرؤها من لاصلة له ولامعرفة عنده بما كتب عن تاريخ الجزيرة، فيظن ذلك صحيحاً وهو ليس بصحيح.

الأمر الثاني: على فرض أن الشعر العامي هو المصدر الوحيد الذي يعتمد عليه الباحث، وعلى فرض أننا ألغينا كل ما نعرف وأن مؤرخي نجد الذين تحدثنا عنهم قبل قليل، لم يوجدوا وأن المنقور والفاخري وابن بشر وابن غنام لم يوجدوا ولم يكتبوا حرفاً واحداً في تاريخ الجزيرة. وأن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقيام الدولة السعودية الأولى لم يوجدا في الجزيرة معاصرة للبداية الحقيقية للشعر العامي الذي سجلت فيه أحداث الجزيرة التاريخية كما زعموا. وأن دعوة الشيخ والدولة السعودية لم يكن لهما علماء ومؤرخون ولم يكتب عنهما شيء. ولم تتخذ الدول الإسلامية والعربية منهما موقفاً سجلت فيه كل الأحداث في نجد، ولاسيما مايتعلق بقيام الدولة السعودية الأولى.

هب أن هذا كله لم يحدث حتى يصح رأيهم وحتى يكون الأدب العامي هو المرجع الوحيد لتاريخ الجزيرة ولا مرجع غيره. إذاً تكون قيمة الأدب العامي قيمة تاريخية ويكون الاهتمام به محدد بزمن معين لايتجاوزه إلى غيره. ومحبو العامية متفقون على ذلك ويرددون القول بأن تعلقهم به من أجل قيمته التاريخية ليس إلا.

ومادامت قيمة الأدب العامي قيمة تاريخية فقد مضت أهميته عندما كانت الجزيرة على رأيهم ليس فيها من يكتب تاريخها، وعلى هذا يكون تمسكهم به لقيمته التاريخية. إذن تكون هذه المرحلة منتهية لانتهاء ماسجل فيها من الشعر الماضي ولاحاجة بهم إلى الجديد منه والذي ينشرونه اليوم ويدونونه ويدافعون عنه، وهو لايسجل تاريخاً ولا يصور ماضياً. فلدينا الآن علماء ومؤرخون وكتاب يسجلون تاريخ حاضرنا لحظة بلحظة، ولسنا بحاجة إلى العامية التي تنشر في الوقت الحاضر حتى تكون مرجعاً وحيداً لأحوال الجزيرة في القرن العشرين، وفي زمن التعليم وفي وجود سبع جامعات تنتشر في مناطق المملكة، وأخرى في بقية أجزاء الجزيرة.

ولا معنى للتوسع الآن في العامية فكراً وأدباً وتاريخاً، وليس ثمة ضرورة لعقد المؤتمرات وإقامة الندوات من أجلها حيث تهدر عليها الأموال التي يذهب أكثرها إلى أيد أجنبية وجامعات غربية، وكل مايقال ويعالج بهذه المؤتمرات والندوات هو حاضر العامية وليس ماضيها.

وهذا لايحدث من أجل أن يكون مرجعاً يعتمد عليه الباحثون في تاريخنا في المستقبل.

والأهم من ذلك أن ماقيل في الماضي من الشعر العامي الذي يحتج به ماصر و العامية قد أصبح محفوظاً مدوناً. أحصى كله وجمع من مظانه، ودوّن من مصادره الأساسية وحفظ في المكتبات العامة والخاصة وفي مراكز البحوث، وأصبح التحكم فيه ميسوراً وسهلت دراسته دراسة علمية، وهي الاطلاع عليه ليستفيد منه الباحثون الذين يحتاجون إلى الرجوع إليه لدراسة فترة مضت من تاريخ الجزيرة، ويطلعون على مافيه من أشياء قد يحتاجها الباحث.

وقد تم واكتمل ماقيل في الماضي من الأدب العامي ودوّن وانتهى تدوينه واحتوته كتب مشورة محفوظة ومخطوطات لدى الذين يهتمون به أو لدى الأسر التي مدحتْ به أو قاله بعض أفرادها وقد بلغت قيمة بعض مخطوطاته مئات الآلاف.

ولم يشذ من قديم الشعر العامي والأدب العامي إلا القليل عن بطون الكتب والمصادر والمراجع التالية[٣٥]:

٠١ روضة الشعر، جمعت للشيخ سلمان بن حمدان آل الخليفة
٠٢ الشوارد، الجزء الثالث، جمع عبدالله بن محمد بن خميس، دار اليمامة ١٣٩٤هـ.
٠٣ شعر شلويح المطاوي لأبي عبدالرحمن بن عقيل في ١٣٩٤/٨/١١هـ.
٠٤ شعر النبط، صدر عن ديوانه شعر النبط بالكويت.
٠٥ الأنباط والشعر النبطي، لصادق محمد بخيت.
٠٦ شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن رداس
٠٧ من آدابنا الشعبية، منديل بن محمد بن قهيد.
٠٨ خيار مايلقط من شعر النبط، عبدالله الحاتم.

٠٩ راشد الخلاوي، عبدالله بن خميس.
١٠ أساطير شعبية، عبد الكريم الجهيمان.
١١ أبطال من الصحراء، محمد أحمد السديري.
١٢ الأزهار النادية من أشعار البادية، جمع محمد سعيد كمال، ١٥ جزءاً
١٣ شعراء الرس النبطيون، فهد الرشيد، جزءان.
١٤ من البادية على الصفراني فيها نتف من الشعر العامي القديم، ٩ أجزاء. أول خلطة من شعر القلطة[٣٦].
١٥ الأدب الشعبي في الحجاز عاتق غيث البلادي.
١٦ ديوان النبط لخالد الفرج، جزءان.
١٧ الأنوار الهادية من أشعار البادية، محمد البادي، جزءان.
١٨ منتخبات من الشعر النبطي، لم يبين الجامع اسمه.
١٩ ديوان الدرر اليتيمة من أشعار النبط القديمة، لم يبين الجامع اسمه.
٢٠ من فنون البادية نايف بن زابن الحربي فيه نتف من الشعر العامي القديم.
٢١ الفنون الشعبية في الجزيرة العربية، محمد بن أحمد الثميري، رواية محمد بن عبدالله الضبيوحي.
٢٢ الشعر العامي في نجد، عبدالله الفرج
٢٣ ديوان حمود ناصر البدر، عبدالله الدويش
٢٤ الأزهار الشادية في صحراء البادية، ناصر المحمد الحميد.
٢٥ ديوان ابن حميثن والعوني، جمع محمد اليحي، تحقيق عبدالله الحاتم
٢٦ بين الغزل والهزل، (شعر هويشل بن عبدالله)-سعد الجنيدل
٢٧ الكنوز الشعبية محمد بن مشعي الدوسري، فيه نتف من الشعر العامي القديم
٢٨ الأمثال العامية في نجد، محمد العبودي، ٥ مجلدات.
٢٩ الأمثال الشعبية في قلب الجزيرة العربية، عبدالكريم الجهيمان، ٦ مجلدات
٣٠ ديوان حمد بن علي المدحوس المري.
٣١ الشعر عند البدو، شفيق الكمالي.

٣٢ - الأدب الشعبي في جزيرة العرب، عبدالله بن خميس.
٣٣ - من أحاديث السمر، عبدالله بن خميس.
٣٤ - حكم وأشعار ليس فيها شيء مستعار، محمد بن سليمان الفوزان.
٣٥ - ديوان شعراء من الجزيرة العربية، محمد الهاجري جزءان.
٣٦ - رياض الصيد، زايد بن سلطان آل نهيان.
٣٧ - ديوان قاسم بن محمد آل ثاني وقصائد أخرى نبطية.
٣٨ - شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردّاس، مجلدان.
٣٩ - مقارنة الشعر العربي الفصيح بالشعر النبطي المليح، عبدالله العلي الزامل.
٤٠ - من الأدب الشعبي، عبدالله الزامل.
٤١ - المجموعة البهية من الأشعار النبطية، عبد المحسن أبا بطين.
٤٢ - التحفة الرشيدية من الأشعار النبطية، مسعود بن سند سيحان، ٤ مجلدات.
٤٣ - من شيم العرب، فهد المارك، ٤ أجزاء.
٤٤ - ديوان حميدان ومحيسن وعيون الشعر النبطي، عبدالله الحاتم.
٤٥ - أضواء النجوم في أشعار البقوم، حسين عائض.
٤٦ - روائع من الشعر النبطي، عبدالله اللويحان، معظمه من شعره وفيه نوادر من الشعر القديم.

وفي مجلة العرب، ج ١١، ص ١٣٩ ـ ٨٨٣ مقالة نفيسة للدكتور العثيمين عن هذا الشعر ومصادر تاريخ نجد وفي ج ١، س ١، ص ٨ ـ ١٣ مقالة للشيخ ابن خميس عن هذا الشعر ومعالم الجزيرة.

قال أبو عبد الرحمن بن عقيل:

ومالايوجد في مكتبتي من هذه القائمة وهو قليل استفدته من الأخ محمد الحمدان(٣٧).

وهناك بعض الكتب تحفل ببعض النتف والومضات لاسيما كتب معاجم البلدان الحديثة ابتداء بصحيح الأخبار لابن بلهيد، ثم أسرف الشيخ سعد الجنيدل في الاستشهاد بالشعر العامي. ومثل دلك كتب التاريخ كتاريخ مقبل الذكير، وكتاب الزبير ليوسف حمد البسام

وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة وندة صاري الفهيد

وبعض كتب الرحلات ككتاب مارأيت وماسمعت للزركلي. وبعض كتب الأنساب كنسب حرب للبلادي وقبيلة العوازم لعبد الرحمن العبيد والحويطات لعدنان عطار، وكنز الأنساب ومجمع الآداب لحمد الحقيل، والعريبات لفهد الربيعان، وبعض الدواوين كابتسامات الأيام لابن بليهد وديوان مرشد البدالي ففيه مايفيد عن الشاعر سليمان بن شريم

وبعض الكتب المؤلفة في موضوعات خاصة كرسالة الملك عبدالله بن الحسين عن الخيل الملحقة بكتاب الصافنات الجياد، وكتاب تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء لعبد العزيز الأحيدب وبعض كتب التراجم ككتاب عبد العزيز في التاريخ للحقيل، والأمير عبد العزيز المساعد لحسن حسن سليمان، وكتاب الشيخ ابن بسام عن علماء نجد. وبعض كتب القصص والحكايات.

وهناك مجموعات لاتزال مخطوطة منها مجموعة سليمان الصالح الدخيل بمكتبة الآثار العراقية، ودواوين جمعها محمد الحمد العمري وهي الآن مودعة بجامعة الرياض ولدى الربيعي بعنيزة عدة دواوين وأشار بن خميس في شت مراجعة إلى مجموعات خطية وقد أعد فهد المبارك رحمه الله دراسة حافلة عن العوني لاتزال مخطوطة ولدى الشيخ سعد الجنيدل مجموعات لم تطبع بعد وديوان عبد الكريم الجويعد رحمه الله ـ مخطوط ضخم انتقل إلى حوزة بعض الفضلاء ولدى الأستاذ محمد الطويل مجموع خطي عن شعر البواريد وأهل شقراء. والأستاذ عبد الرحمن بن عقيل المحمد يجمع ديواناً حافلاً يضم طائفة من أشعار أهل عنيزة، كما أشار إلى ذلك الشيخ محمد العبودي في كتابه بلاد القصيم ٤/١٦٤١

قال أبو عبدالرحمن. وقد علمت أن سمو الأمير عبدالله الفيصل يعد العدة لنشر هذا الشعر في عشرات الأسفار.

قال أبو عبد الرحمن هذا مايتعلق بالشعر العامي القديم، أما الشعر العامي الحديث فليس من منهج دراستي في هذه الأسفار(٣٨).

هذه المصادر التي أوردها وتحدث عنه أبو عبدالرحمن بن عقيل في كتابه تاريخ نجد في

عصور العامية أو ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد جمعت ماقيل عن الشعر في الجزيرة العربية في الماضي. وهذه المصادر إما منشورة محفوظة بين أيدي الباحثين أو محفوظة في مكتبات الجامعة، أو المكتبات الخاصة ومكانها معروف والعودة إليها سهلة في حالة البحث عن المعلومات التي يتضمنها الشعر العامي. وقد جمعت أدسم مادة من الأدب العامي في الجزيرة في الماضي وغطت كل أجزائها التي نما فيها شعر العامية وهي محفوظة، وأكثرها منشور ومطبوع منه آلاف النسخ منتشرة بين أيدي الباحثين.

وهناك عدد من مجموعات الشعر العامي لدى بعض المهتمين به غير ما أشار إليه أبو عبدالرحمن.

وعلى ضوء هذا الاهتمام الذي تمّ يكون ماضي الجزيرة الذي سجله الشعر العامي عندما كانت قطعة من سيبريا أو جزءاً من سطح القمر حسب يزعم محو العاميه محفوظ مدوّن. ولاخوف عليه من الضياع وليس هناك خطر ولاتفريط به إن شاء الله.

إذن الدعوى بأن اهتمامنا بالفكر العامي في الوقت الحاضر وتركيزنا على الثقافة العامية ومحاولة نشرها هو من أجل المحافظة على الماضي وحفظه دعوى لاحقيقة لها، لأن ما في الماضي سجل وحفظ. لكن لماذا الاستمرار والعطاء الجديد المتزايد من العامية الذي تحول إلى فكر منظم وتنظير لثقافة عامية معاصرة وليست من الماضي بشيء وإنما هو تكريس لمفهوم الفكر والثقافة العاميين حتى أصبحت ثقافتنا ومميزات حضارتنا هي الثقافة العامية وأصبح الفكر العامي هو المفضل الذي يقرؤه الناس ويهتمون به ويعتنون بنشره وحفظه. ولم يكن فيهم واحد من المؤرخين الذين يبحثون عن حقائق التاريخ.

الركيزة الثامنة :

تقول الركيزة الثامنة التي استخلصناها من مجمل الآراء المطروحة التي تدافع عن وجود العامية واستمرارها: إن الأدب العامي والشعر منه خاصة لايختلف كثيراً عن الشعر الفصيح، وهو سليلة وفرع من فروعه، وفي استطاعة الشاعر العامي أن يأتي بما يطابق الشعر الفصيح وزناً ومعنى إذا أراد[٣٩].

الذين يدعون تشابه الشعر العامي والفصيح ويزعمون أن الاختلاف بينهما ليس اختلافاً كبيراً لم يحددوا أوجه الشبه ولاضروب الاختلاف، حتى يستطيع الباحث مناقشة آرائهم أو يتفق معهم.

فإن كان المراد اللغة: فالاختلاف بلغة كل منهما كبير وإن كان المراد طريقة النظم والإنشاد فلكل من هذين الفنين أصول ونظم مختلفة وكذلك البناء في كل منهما والوزن والبحر والمفردات والقافية وطريقة الإنشاد مختلفة أيضاً بالرغم من أن للشعر العامي وزناً وقافية وللشعر العربي الفصيح وزناً وقافية. لكن التزام كل منهما بوزن وقافية لا يحقق الشبه بينهما. والشعر الفارسي والشعر التركي ينظمان على أوزان الشعر العربي الفصيح إلى يومنا هذا ويصاغان في قالب الشعر العربي باللغة الفارسية واللغة التركية ولم يزعم أحد أن هذين الشعرين في لغتيهما الفارسية والتركية فرع من الأدب العربي أو سليلين له أو متطورين عنه مع أنهما ينظمان على قوالب الشعر العربي وأشكاله(٤٠).

والشعر العامي له أوزان كثيرة منها ماقد يوافق وزناً من أوزان الشعر الفصيح ومنها مالايوافق شيئاً من ذلك وأوزان الشعر العامي لازالت في علم الغيب لم تحدد ولم تعرف ولم تكتشف وإلى أن تعرف جميع أوزان الشعر العامي التي ينظم عليها يؤجل الحديث عن المشابهة التي تتحدث عنها الأقوال السابقة إن كان المراد بها الوزن والقافية.

أما الفارق الكبير المميز للشعر الفصيح عن العامي فهو اللغة. فقد فقدت لغة الشعر العامي خصلتين مهمتين من خصائص الشعر العربي الفصيح:

الأولى: الإعراب.. والثانية: التركيب..

فالإعراب هو أساس الشعر الفصيح وإذا أخلَّ الشاعر بإعراب كلمة واحدة في بيت الشعر الفصيح أفسده واحتاج إلى الاتيان بالكلمة معربة صحيحة حتى يستقيم شعره. وإلاسقط في عثرات وعجز يؤاخذ عليه ولايعتبر الشعر في هذه الحال شعراً فصيحاً. أما العامي فقد أشار بعض الباحثين إلى وجوب الابتعاد به عن اللغة العربية الفصحى حتى يستقيم وزنه ومنهم الأستاذ عبدالله بن خميس حيث يقول «لاتحاول وأنت تقرأ هذا الشعر أن تسلك جادة اللغة

الفصيحة، فتسلط العوامل على معمولاتها، وتحاول الرفع أو النصب أو الجر أو السكون بالعلامات الأصلية، أو الفرعية أو الحذف أو السكون أو تحاول أن تقول عن هذا الفعل إنه مثال أو عن الآخر إنه أجوف أو عن ثالث إنه ناقص أو مهموز أو واوي أو يائي الخ . . ولا عن هذا الاسم إنه مقصور أو منقوص أو مؤنث حقيقي أو معنوي ولا عن هذا الجمع أو هذه التثنية أنهما صحيحان أو غير صحيحين. لا تحاول أن تقرأ الشعر وأنت مرتبط بشيء من هذا ولا أن تقول إذا جئت تقرؤه لم هذا هكذا، أو ليس هذا بصحيح . فالشاعر النبطي يريد أن يخضع كل شيء من أجل استقامة وزن بيته وكفى»[41].

ويقول في مكان آخر: (ينفرد هذا الشعر بخصائص تنأى به عن الشعر الفصيح ونظراً لأنه لم تقعد له قواعد ولم يوضع فيه دراسات يفهم على ضوئها وقد جانب كثيراً من قواعد اللغة العربية واصطلاحاتها: نحوية كانت، أم صرفية أم إملائية أم عروضية، لذا فإنه من العسير على الدارس لهذا الشعر وهو بعيد عن بيئته ومحيطه أن يركز فهمه فيه أو يخرج منه بكبير فائدة، مالم يؤده الأداء الصحيح بلهجته الخاصة به)[42].

أما نظم الجملة العربية الفصيحة فكلنا يعرف أنه يرد على وجوه أقلها أن يتألف من اسمين أو من فعل واسم أو من جملتين أو من فعل واسمين، أو فعل وثلاثة أسماء أو من فعل وأربعة أسماء . .

والمؤلف من اسمين له أربع صور؛ لأن الاسمين إما مبتدأ وخبر نحو «زيد قائم» وإما مبتدأ وفاعل سدَّ مسد الخبر نحو «أقائم الزيدان»، وإما مبتدأ ونائب فاعل سد مسد الخبر نحو «أمضروب زيد» وإما اسم فعل وفاعله نحو «هيهات العقيق» وإما مؤلف من فعل واسم وله صورتان، لأنه وإما أن يتكون من فعل وفاعل نحو «قام زيد» وإما من فعل ونائب فاعل نحو «قطع الغصن» وأما المؤلف من جملتين فله صورتان لأن الجملتين وإماجملتا القسم وجوابه نحو (أقسم بالله لأكرمنك) وإما جملتا الشرط وجوابه نحو «ان تجتهد تنجح» والمؤلف من فعل واسمين له صورة واحدة وهي (كان) أو إحدى أخواتها مع اسمها وخبرها نحو قولك «كان الجو حاراً» «وأصبح الجو بارداً»[43] وهذا أقل مايمكن أن يفيد معنى من المعاني في اللغة العربية الفصحى ويسمى كلاماً ولايخرج الشعر الفصيح عن هذا النظم إلا في حالة الضرورة.

أما نظم الجملة العامية فليس له قاعدة معروفة حتى الآن وقد يوافق حالاً من أحوال بناء الجملة العربية ونظمها في بعض الحالات وفي بعض التعبيرات وقد يخالف ذلك ولا أعرف حداً لاقله ولم أطلع على تحديد لنظم الجملة العامية يمكن الاعتماد عليه حتى يمكننا أن نقارن بين الجملة الفصيحة والعامية، ويعرف وجه التشابه بينهما، وليس الغرض من هذه الدراسة هو مقارنة الجملة العامية في الجملة العربية إنما الغرض بيان الاختلاف بين نظام الجملتين وبعد كل منهما عن الأخرى وانتفاء التشابه بينهما.

أما الآراء التي تقول: إن الأدب العامي والشعر منه خاصة فرع من فروع الأدب العربي وأنه سليله ومتطور عنه فهي لاتعني مايريد محبو العامية.

وأول من قال هذا الرأي ـ على حد ما أعرف ـ هو الأديب الشاعر خالد الفرج رحمه الله في مقدمته لديوان النبط، الذي يعد أول مجموع عامي صدر في الجزيرة العربية وإن سبقه ديوانان في كل من قطر والكويت أحدهما بعناية خالد الفرج نفسه. ورأى خالد لايسر مروجي الفكر العامي في الوقت الحاضر، وهذا نص ماقال: (ولكنه في البادية تطور بحكم ـ يعني الشعر العامي ـ التطور الطبيعي إلى لغة ممسوحة مشوهة عن الأصل ولكنها محتفظة بكل عناصر أمها القديمة)[٤٤]. هذا حكمه على لغة الشعر العامي الذي نتحدث عنها في هذا البحث. أما عناصر أمة التي أشار إلى أنه احتفظ بها فهي لاتعني لغته وإنما مضمونة، وهذا تمام الجملة التي نبين مايعني الكاتب بالفرع والأصل عندما زعم أنه فرع من الشعر العربي الفصيح: (فالشعر العامي النجدي توجد فيه جميع العناصر والمميزات التي كانت موجودة في الشعر الجاهلي من بلاغة وإيجاز وسرعة خاطر ودقة وصف واتحاد موضوع)[٤٥].

إذن خالد الفرج يعني وظيفة الشعر الفنية ولا يعني لغته وليس هناك خلاف في ذلك. فالشعر العامي يعبر عن مضمون تتوفر فيه العناصر التي ذكرها المؤلف. وقد تبع رأيه آراء أخرى ودراسات تذهب هذا المذهب. وهي لاتعني غير وظيفة الأدب العامي الفنية وقيمته الأدبية.

أما أنه فرع من فروع الأدب العربي الفصيح فلاشك بذلك وهو في حقيقته فرع انحدر من الأدب العربي الفصيح وبعد عنه واتخذ مساراً غير مسار الأدب العربي وتميز بخصائص

ومقومات لغوية غير خصائص ومقومات أصله وانحداره من أصل العربية لايقلل من خطورته عليها وعلى أدبها وابتعاده عنها سيجعله منافساً لها ثم لايلبث أن يحل هو ولغته محل اللغة الفصحى. ودارسو اللغات وعلماء تاريخها يعرفون أن كل مجموعة لغات قائمة اليوم رغم اختلافها وتباينها في الوقت الحاضر فإنها تعود في أصلها إلى لغات أقدم منها وتعتبر فروعاً متطورة عن أصل واحد ويجمعون كل عدد منها وينسبونها إلى مجموعة لغوية واحدة، ويعرفون أن كل لغة مع مرور الزمن يصيبها التحلل والانفكاك فتنمو فروعها حتى يصبح كل فرع لغة قائمة لاصلة لها بأخواتها الأخر التي كانت تشركها في أصلها الأول. حتى تصبح اللغات ذات الأورمة الواحدة لغات منفصل بعضها عن بعض لايربطها إلا الجذور، وصيغ التراكيب التي يستدل بها الباحثون على صلة القربى بينها. مثال ذلك مايقولون عن اللغة الفصحى، حيث يجمعون على أنها فروع من فصيلة كبيرة يطلق عليها فصيلة «اللغات السامية». كما يقول الدكتور رمضان عبد التواب «تنقسم اللغات السامية عموماً إلى شرقية وغربية، كما تنقسم السامية الغربية إلى غربية شمالية وغربية جنوبية. أما السامية الشرقية فهي الأكادية بفرعيها البابلية والأشورية.. وأما السامية الغربية الشمالية فتنقسم إلى اللغتين: الكنعانية والآرامية أما الأولى فتنقسم إلى الكنعانية الشمالية والكنعانية الجنوبية ومن الكنعانية الجنوبية اللغة العبرية واللغة المرابية والافينيقية... ونصل إلى القسم العربي الحنوبي من اللغات السامية ويضم لغتين هما العربية، والحبشية، أما العربية فتنقسم إلى قسمين هما. اللغة العربية الجنوبية، واللغة العربية الشمالية... أما الأولى فهي ماتعرف عند اللغويين العرب باللغة الحميرية وموطنها اليمن وجنوبي الجزيرة العربية وتنقسم إلى لهجتين السبئية والمعينية... أما العربية الشمالية فهي لغة وسط الجزيرة وشمالها، وهي التي تسمى في عرفنا اللغة العربية الفصحى»(٤٦).

ومثل هذه الصلة يقال عن اللغات الأوربية وعن اللغات الهندية الايرانية والقرابة بين اللغات المذكورة وتفرع بعضها عن بعض(٤٧) لم يمنع أن تصبح كل منها لغة يستغلق فهمها على غير أهلها.

ومابالنا نذهب بعيداً في تاريخ اللغات ونحن نعرف ماهو أقرب زمناً وأصدق تمثيلاً. فاللغات الأوربية الحية مثل الأسبانية والفرنسية والايطالية الحديثة كلها كانت قبل أقل من

أربعة قرون لغة واحدة هي اللاتينية فتفرعت وأصبحت لغات مستقلة.

وتشجيع العاميات في الوطن العربي وتفضيلها في بعض الأحوال ونشرها والحديث عن ميزاتها وفضائلها وتقريبها للناس سيبعد بها عن أصلها ويحولها في نهاية المطاف ومع مرور الوقت إلى لغات مستقلة تنفصل وتبعد عن أصلها العربي وأمها اللغة ويستغنى بالعامية عن غيرها وقد راود هذا الاحتمال - احتمال انفصال اللهجات العامية العربية اليوم إلى لغات مستقلة لايفهم من يتكلم واحدة منها للهجات الأخرى - كبار المفكرين العرب والأدباء وأهل العلم بتطور اللغات ومنهم الدكتور طه حسين الذي استشهد العوام بثنائه على أدب العامية في الجزيرة، يقول طه حسين: (فلنحذر من أن نشجع الكتابة باللهجات العامية فيمعن كل قطر في لهجته وتمعن هذه اللهجات في التباعد والتنافر ويأتي يوم يحتاج فيه المصري إلى أن يترجم لهجته إلى كتب السوريين واللبنانيين والعراقيين، ويحتاج أهل سورية ولبنان والعراق إلى مثل مايحتاج إليه المصريون كما يترجم الفرنسيون عن الايطاليين والاسبانيين)[٤٨].

وقد تحقق ماحذر منه في اللغة غير المكتوبة في لهجات الجزيرة وهي إقليم واحد يربط أهلها روابط تاريخية واحدة وجغرافية واحدة وليس بينهم فاصل جغرافي أو عرقي أو غير ذلك، وهذا الأستاذ عبدالله بن خميس يقرر حقيقة الاختلاف بين العاميات الدارجة في الجزيرة العربية فيقول إن المتكلمين بلهجة خاصة لبعض أطراف الجزيرة العربية كانوا لايعرفون اللهجات الأخرى التي كانت تستعمل في الجزيرة نفسها ولايتفاهم أهل هذه اللهجات إلا بالاشارة وفحوى القول. هذا إذا كان الحديث كما يقول الكاتب. عن الأمور المشتركة. أما إذا كان عن خصائص كل لهجة عامية فلا سبيل إلى معرفة ذلك[٤٩].

وعلى حد وصف الكاتب فلو كانت تلك اللهجات العامية التي أشار إلى بعدها عن بعضها وهي لأهل الجزيرة العربية. لو كانت مكتوبة ومكتوب أدبها وفنها وشعرها ونثرها لكانت الجزيرة اليوم كأوروبا الغربية تتكلم عدة لغات رسمية يجمعها أصل واحد ولايتفاهم الناس بها إلا بالاشارة وفحوى القول كما ذكر في حال العاميات في الجزيرة العربية في الماضي. أما الحاضر فلا نجد صعوبة في فهم أي متحدث بأية لهجة من لهجات العالم العربي وماذاك إلا

بفصل العلم والوسائل الحديثة التي حطمت السدود أمام اللغة العربية الفصحى وخففت من الانغلاق الذي كان سائداً من قبل.

● ● ●

الحواشي والتعليقات:

(١) جريدة الجزيرة، عدد ٤٧٦٨ في ١٤٠٦/٢/٤هـ.
جريدة الجزيرة، عدد ٤٧٨٢ في ١٤٠٦/١٢/١٨هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.

(٢) مقدمة ديوان التميمي، عبدالله بن علي بن صقية، شرح أبي عبد الرحمن بن عقيل، الجزء الثاني عام ١٣٩١هـ.

(٣) جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٨٧٤ في ١٤٠٤/١٠/٢٥هـ.

(٤) الأدب الشعبي، شعر أم زجل،
توفيق علي وهبة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. الصفحات ٦٥، ٧١، ٩٥، ٩٨... الخ.
والجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.

(٥) جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.

(٦) الأدب الشعبي شعر أم زجل. ص٩٨ ـ ١٠٤
وجريدة الجزيرة، عدد ٤٣٤٨، في ١٤٠٤/١١/٢٧هـ
جريدة الجزيرة، عدد ٤٣٤١ في ١٤٠٤/١١/٣٠هـ
جريدة الرياض، عدد ٥٨٧٤ في ١٤٠٤/١١/٢٥هـ
جريدة الرياض، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ
مجلة الدوحة، ديسمبر عام ١٩٨٤م.

(٧) مجلة الدوحة، عدد ديسمبر عام ١٩٨٤م.

(٨) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟، ص١٠٣، ١١٥، ٢٤١.
جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ
جريدة الرياض، عدد ٦٣٥٢ في ١٤٠٦/٣/١هـ
جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٤١ في ١٤٠٥/٣/٣هـ.
وغير ذلك عدد كثير من المقالات التي نشرت في الصحافة المحلية.

(٩) وكان سعيد بن المسيب إذا سئل عن معنى آية من القرآن الكريم يقول: لا أقول بالقرآن شيئاً، تحرجا من الاقدام على تفسير شيء منه بغير معناه وخوفاً من الوقوع في الزلل.
انظر عن ذلك تفسير الطبري، الجزء الأول، صفحة ٨٥، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر.

(١٠) يعني دليلاً تقوم به الحجة على صدق النبوة.

(١١) تفسير الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.
جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت بدون تاريخ.

(١٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، تحقيق عبدالرحيم محمد، المطبعة البهية المصرية، تاريخ ١٣٥٧هـ.

(١٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار احياء الكتب العربية، بدون تاريخ الطبعة الأولى.

(١٤) جريدة الرياض، عدد ٥٧١٠ في ١٤٠٤/٥/٩هـ.

(١٥) المقدمة، مقدمة ابن خلدون، نشر بيروت، بدون تاريخ.
(١٦) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟ ص٩٥.
(١٧) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟، ص١٥١.
وجريدة الندوة، عدد ٧٤٤١ في ١٤٠٣/١١/١٦هـ.
(١٨) جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
(١٩) الشعر الشعبي، شعر أم زجل، ص١١٢
(٢٠) الشعر الشعبي شعر أم زجل؟، ص٧٦.
مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.
جريدة الجزيرة، عدد ٣٩٧٨ في ١٤٠٣/١١/١٢هـ.
وجريدة الجزيرة، عدد ٤٣٧١ في ١٤٠٤/١٢/٢١هـ.
جريدة الندوة، عدد ٧٤٤١ في ١٤٠٣/١١/١٦هـ.
جريدة الجزيرة، عدد ٤٤٥٣ في ١٤٠٥/٣/١٥هـ.
(٢١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب. عبدالله بن محمد بن خميس، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، مطابع الفرزدق، الرياض.
(٢٢) مقدمة شاعرات من البادية، عبدالله بن محمد بن ردّاس، دار اليمامة للنشر، بدون تاريخ.
ـ الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ منشورات جامعة الرياض، (الملك سعود حالياً).
ـ مقدمة ديوان التميمي، عبدالله بن علي بن صقيه، طبعة عام ١٣٩١هـ.
ـ جريدة الرياض، عدد ٥٩٩٢ في ١٤٠٥/٢/٢٥هـ.
ـ جريدة الجزيرة، عدد ٤٤١٤ في ١٤٠٥/٢/٥هـ.
ـ جريدة الرياض، عدد ٦٣٥٢ في ١٤٠٦/٣/١هـ.
ـ الشعر الشعبي، شعر أم زجل، الصفحات ٤٢، ٦٦، ٩٣، ٩٦، ١٣٨، ١٨٥.
ولا أستطيع حصر كل الأقوال التي تزعم أن الشعر العامي مصدر لتاريخ الجزيرة العربية وهي مبثوثة في الدواوين العامية والمقالات والمؤلفات والدراسات التي تتناول موضوع الشعر العامي.
(٢٣) ماعدا الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين الذي حاول أن يحترز من اطلاق القول وتعميمه، انظر الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
(٢٤) الحجاز واليمن من الجزيرة العربية وتاريخها متصل لم ينقطع ولم يهمل.
(٢٥) بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية، عبد الكريم كريم،
مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات جامعة الرياض، عام ١٣٩٩هـ.
(٢٦) منهم خالد الفرج في مقدمة مجموعة ديوان النبط، وعبدالله بن محمد بن خميس في كتابه الأدب الشعبي في جزيرة العرب، وراشد الخلاوي وأبو عبدالرحمن بن عقيل في كتابه نجد في عصور العامية أو الشعر العامي بلهجة أهل نجد، وعبدالله خالد الحاتم في كتابه خيار مايلتقط من شعر النبط، والدكتور عبدالله بن صالح عثيمين في مقالة نشرت في مصادر تاريخ الجزيرة العربية بعنوان «الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد».
(٢٧) مثل شعر راشد الخلاوي.
(٢٨) مثل شعر بني هلال.
(٢٩) البدايات الأولى للشعر النبطي العامي.
(٣٠) أنظر مثلاً، اعتراف أبي عبدالرحمن بن عقيل بتعديل وزن بعض الأبيات في بعض القصائد في كتابه ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، صفحة ٩٢، مع أنه عالم باحث وصاحب منهج، فبالك بمن لايعرف عن أمانة النقل وحرمة النص

شيئاً.

(٣١) عنوان المجد في تاريخ نجد،
عثمان بن عبدالله بن بشر،
تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، منشورات دارة الملك عبد العزيز بالرياض، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٣٢) مابين القوسين المعقوفين من كلامي وليس من كلام الشيخ حمد الجاسر.

(٣٣) مؤرخو نجد من أهلها، ثلاث مقالات، ربيع الأول والثاني، وجماد الأولى، عام ١٣٩١هـ.
مجلة العرب، م ١ السنة الخامسة، عام ١٣٩١هـ.

(٣٤) منهم ولن، WALLEN زار نجدا ووصفها، وبالجريف PALGRAVE خاض الجزيرة وخصوصاً وسطها نجداً، دوتي DOUGHTY زار نجدا وتجول مع القبائل العربية ووصف حياتها، ولفرد WILFRID تجول في نجد ووصف حياة العرب وعاداتهم وتقاليدهم، وهوبر HUBER زار حائل وتيما والقصيم ومثله BARON NOLDE وموزل وللبدى بلانت.
هؤلاء جميعا تحدثوا عن وسط الجزيرة، وأرخوا في رحلاتهم لمشاهداتهم وذكروا أمراء الجزيرة ووصفوا الحياة العامة، وكتبوا عن الأوضاع السياسية فيها إبان عصور نشاط العامية.
أنظر: الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين، مصادر تاريخ الجزيرة العربية الذي مضت الاشارة إليه فيما سبق.
وأنظر: نشأة إمارة آل رشيد، حيث استعان المؤلف بالمعلومات التي أوردها الرحالة الغربيون عن نجد واتخذها مصدراً للمعلومات التاريخية عن الجزيرة في تلك الفترة. نشأة إمارة آل رشيد، الدكتور عبدالله بن صالح بن عثيمين ـ منشورات جامعة الرياض، ط ١، عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٣٥) الشعر العامي بلهجة أهل نجد، أبو عبد الرحمن بن عقيل.

(٣٦) لم يذكر أبو عبد الرحمن بن عقيل مؤلفه.

(٣٧) زرت مكتبة الأستاذ محمد الحمدان واطلعت على مالديه من دواوين الشعر العامي ومجموعاته.

(٣٨) ديوان الشعر العامي بلهجة أهل نجد، ص ٣٣.

(٣٩) الشعر الشعبي: شعر أم زجل، ص ٤٠، ٤٢، ٥٧، ٦٧، ٧٦، ١٦٧، مقدمة شاعرات من البادية، عبدالله بن ردّاس.
مقدمة مايلتقط، خالد الحاتم،
الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٢٥، عبدالله بن خميس.

(٤٠) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨٦، عبدالله بن خميس.

(٤١) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨٢.

(٤٢) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨١.

(٤٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام، ج ١، ص ١١
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.

(٤٤) مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.

(٤٥) مقدمة ديوان النبط، جمع خالد الفرج.

(٤٦) فصول في فقه اللغة العربية، الدكتور رمضان عبد التواب، دار الخانجي القاهرة ١٩٧٣م.

(٤٧) فقه اللغات السامية
الدكتور كارل بروكلمان،
ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض (الملك سعود حالياً) تاريخ ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧م).

(٤٨) الشعر الشعبي، شعر أم زجل؟ ص ٢٤٦.

(٤٩) الأدب الشعبي في جزيرة العرب، ص ٨١.